سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض

(٥٦)

العذاب الأدنى

حقيقته، أنواعه، أسبابه

تأليف

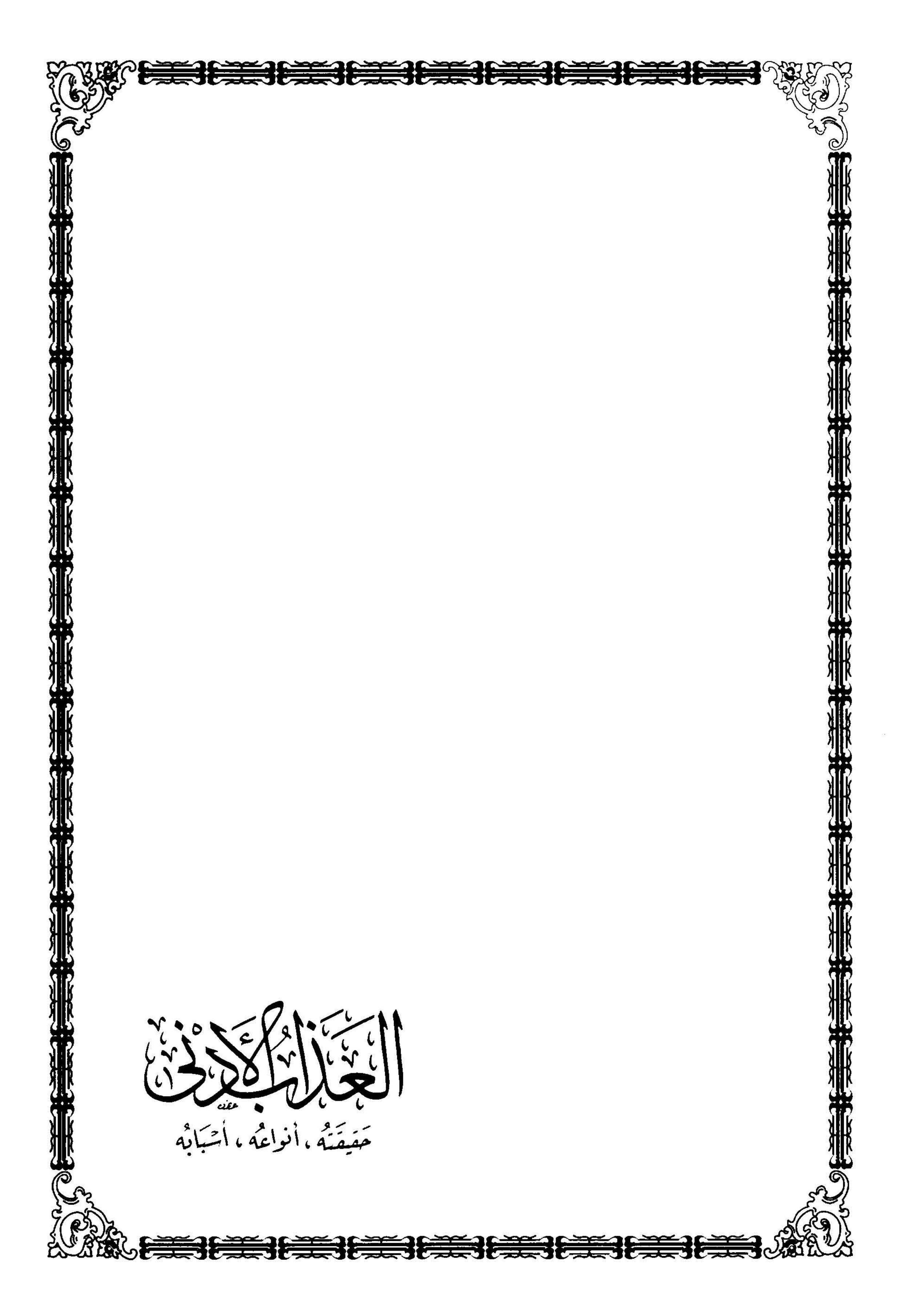
د. محمد بن عبد الله بن صالح السحيم

أستاذ مشارك في قسم الدراسات الإسلامية

في كلية التربية - جامعة الملك سعود

مكتبة دار المنهاج

للنشر والتوزيع بالرياض


العذاب الأدنى
حقيقته، أنواعه، أسبابه

ح مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

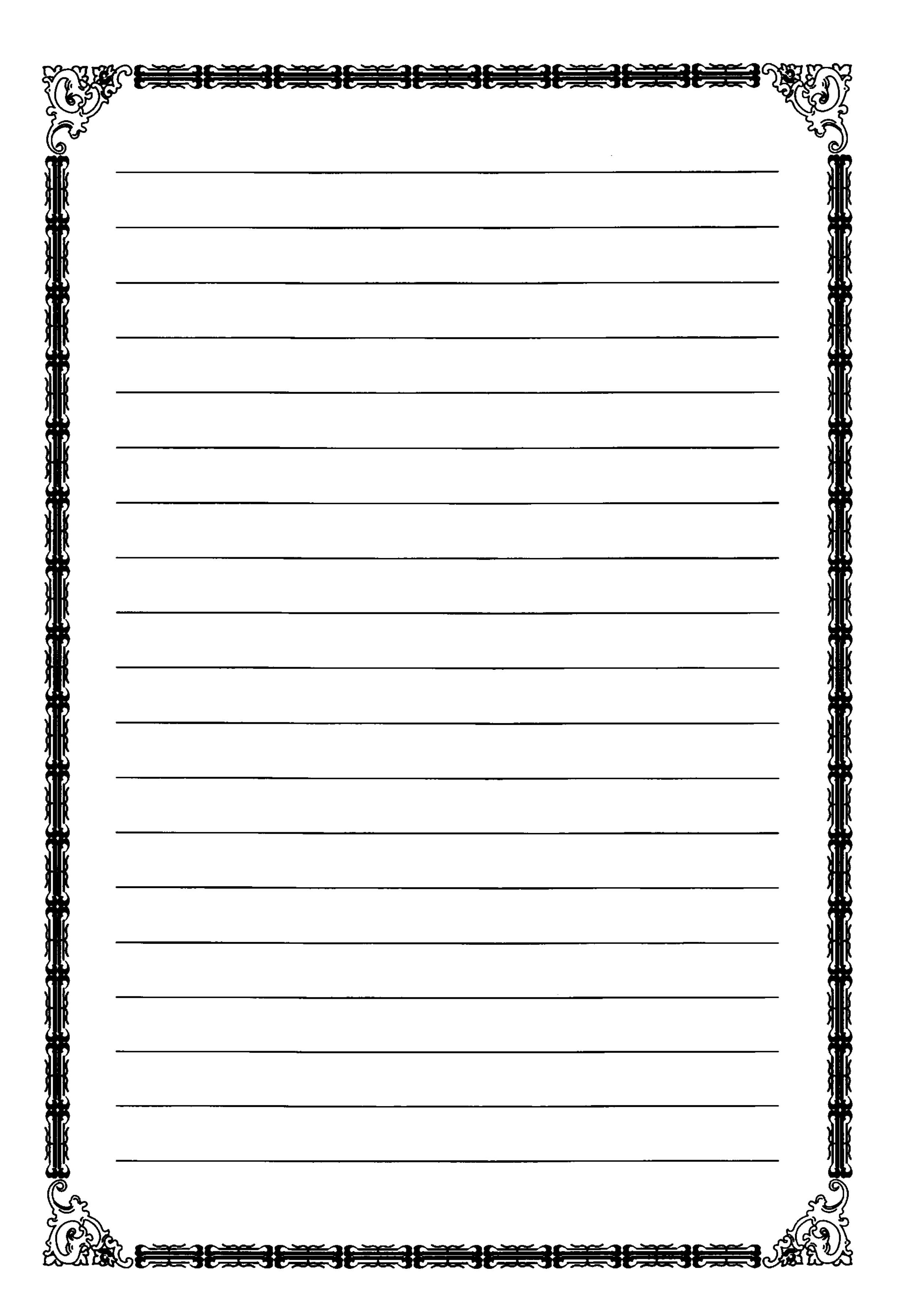
السحيم، محمد عبد الله
العذاب الأدنى: حقيقته - أنواعه - أسبابه. / محمد عبد الله السحيم
.- الرياض، ١٤٢٩هـ
١٢٧ص؛ ١٧×٢٤سم.- (سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج؛ ٥٥)
ردمك: ٠ - ٠٤ - ٨٠٣٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - الثقافة الإسلامية أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ٢١٤ ١٤٢٩/٤٥٩٠

ص ب: ٢٦١٠٣٢ - الرياض: ١١٣٤٢
البريد الإلكتروني: assuhim@hotmail.com

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية . الرياض

المركز الرئيسي - طريق الملك فهد - شمال الجوازات
هاتف ٤٠٦٥٥٥٣ - فاكس ٤٠٨٣٦٩٨ - ص ب: ٥١٩٢٩٠ - الرياض ١١٥٥٣
الفروع - طريق خالد بن الوليد (إنكاس سابقاً) ت: ٢٣٢٢٠٩٥
حي الزوابي - شارع عنيزة - ت: ٤٤٥٦٢٢٩
المدينة النبوية - طريق سلطانة - ت: ٠٤/٨٤٦٧٩٩٩
مكة المكرمة - العزيزية - الطريق النازل للحرم - ت ٠٢/٥٧٦١٣٧٧





المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رُسُله رحمةً بالخلق، ودعوةً إلى الحق، وإرشاداً إلى الهدى، وتحذيراً من الردى، ووعدوهم بالحسنى، وخوفوهم من سوء العقبى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قضى وقدّر، وشرع وأمر؛ فكان تقديره غاية الكمال وعين الحكمة، وكان في شرعه تمام المنة، وسابغ النعمة، فله الحمد على حكمته وحكمه، وله الشكر على نعمته ومنته، وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ، أدى الرسالة، ونصح للأمة، وأقام الحجة، وأوضح المحجة، ودعا إلى أعظم مطلب، وحذر من شر منقلب، وسار على منهج رباني، مقتفياً أثر أولئك الأخيار الذين قيل له عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. فبشّر كما بشروا، وأنذر كما أنذروا؛ إذ هم جميعاً قالوا لأقوامهم: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، فمن صدقهم واتبع النور الذي جاؤوا به؛ سَلِمَ ونجا، ومن كذبهم وتنكب طريقهم؛ خاب وخسر، وأدركه العذاب في الدنيا والآخرة.

وإن الناظر في القرآن الكريم والسنة النبوية يجد من ذلك شيئاً كثيراً، يجد مسيرة طويلة وتاريخاً عظيماً لما بين الرسل وأقوامهم من

التبشير والإنذار، ومن النصر أو العذاب والهلاك والتدمير؛ ففي خبر كل نبي ورد ذكره في القرآن تجد انتصاره واضحاً جلياً، وإهلاكاً لقومه المعاندين عاجلاً ماحقاً.

وتجد هذا العذاب العاجل الماحق يوصف في القرآن بأنه ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ [فصلت: ١٦] في الدنيا، فما بالك بالعذاب التام يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦] وتارة يوصف بأنه عذاب دون العذاب الأكبر، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣] وتارة ثالثة يوصف بأنه العذاب الأدنى، كما في قوله جل ثناؤه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]. وهذه الآية الأخيرة ـ آية السجدة ـ استوقفتني كثيراً، وتأملت ما دلت عليه، ودفعني ذلك إلى البحث في القرآن الكريم عن نظائرها، وعن أسباب هذا العذاب الأدنى، وعن أنواعه؛ فكان هذا البحث الذي بين يدي القارئ، اجتهدت فيه أن يكون محققاً لغرضه، وافياً بمقصده، يبين للقارئ أسباب العذاب فيجتنبها، ويستعرض بعض الشبه التي قد تعرض في هذا الباب فيفندها، ويورد بعض التساؤلات التي تتردد في الأذهان فيجيب عليها.

وقد قسمت هذا البحث إلى **مقدمة**، و**تمهيد**، و**أربعة مباحث**؛ أما **المبحث الأول** فكان بياناً لحقيقة العذاب الأدنى، وأما **المبحث الثاني**، فيتناول آية السجدة ونظائرها في القرآن الكريم، وأما **المبحث الثالث**، فيتضمن أسباب العذاب، وخصصت **المبحث الرابع** لأنواع العذاب، أجارنا الله وإياك من العذاب في الدنيا والآخرة.

وفي ختام هذه المقدمة أقدم شكري لفضيلة الشيخ الدكتور

عبد الرحمٰن بن صالح المحمود على تفضله بمراجعة هذا البحث قبل الطبع وبيان بعض الملحوظات التي تم استدراكها، فجزاه الله عني خير الجزاء.

وأسأل الله أن يجعل هذا البحث من العلم الخالص النافع، الذي يكون نوراً وزاداً في الدنيا والآخرة، فإن وفقت فيه فمن الله، وإن كانت الأخرى فمن النفس المطبوعة بطابع النقص والضعف، ومن الشيطان الذي يسول القبيح ويأمر به ويزيّنه، والحمد لله أولاً وآخراً، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة وهدى للعالمين

د. محمد بن عبد الله بن صالح السحيم
أستاذ مشارك في قسم الدراسات الإسلامية
كلية التربية جامعة الملك سعود
١٤٢٦/٢/٧هـ



تمهيد

إن التاريخ البشري مليء بالعبر والدروس، وإن المتأمل لحياة البشر على هذه البسيطة يجد أنها صراع بين الحق والباطل، وأنها تعيش بين مد وجزر فيما يتعلق بطاعتها وعصيانها وقربها وبعدها عن ربها. وتبعاً لذلك، فإنها يتنزل عليها النصر، أو يحل بساحتها العذاب، بحسب طاعتها أو عصيانها، وهذا العذاب يعم ويخص ويحيط، وقد يعاجل ويباغت، وقد يمهل الله العاصي - سواء كان فرداً أو أمة - ويحل بأمة لتكون عبرة لغيرها، وينزل بآخرين نكالاً لهم وتخويفاً لغيرهم؛ لعلهم يرجعون... وهذا وغيره يجعل القارئ في مثل هذه الأزمنة التي ظهر فيها الجهل، وتتابعت فيها الفتن، وتكاثرت فيها المثُلات - يفسر هذه الأحداث تفسيراً طبعياً على أنها تفاعلات طبعية، وانزلاقات في القشرة الأرضية، لا ارتباط بينها وبين سلوك الناس وتصرفاتهم، وقربهم وبعدهم عن ربهم، وعن الصراط المستقيم[1]، كما تدفع البعض أحياناً إلى التساؤل حول الإمهال والإملاء والمباغتة والإنظار، ومن هذه الأسئلة:

- هل عدم العقوبة دليل على رضا الله عنهم؟.

- لماذا تفلت الدول المتغطرسة[2] من العذاب، بينما يحل العذاب على الدول المسلمة؟.

---

(١) انظر مثلاً الصحف الصادرة بعد أي حدث عظيم كزلزال (بام) في إيران، وزلزال شرق آسيا، وما أعقبه من طوفان (تسونامي).

(٢) الغطريس: الظالم المتكبر. والغطرسة: الإعجاب بالنفس والتطاول على =

- متى يكون العذاب خاصاً، ومتى يكون عاماً؟.

- إذا وقعت العقوبة شملت الصالح والطالح والمحسن والمسيء، فما مصير الصالح؟.

- إذا كان الرسول ﷺ بعثه الله رحمة للعالمين، فكيف يقول المسلم: إن الآيات التي يسلطها على الكافرين تعد عذاباً لهم؟!. فأين رحمة المسلم لغيره من بني البشر؟!.

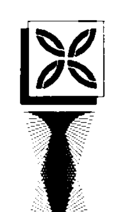
- ما الفرق بين الابتلاء للمؤمنين والعذاب للمعاندين؟.

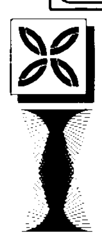
هذه الأسئلة وغيرها سيكون عليها مدار البحث في هذا الكتاب.

= الأقران والتكبر. ترتيب القاموس المحيط، مادة غطرس ٣/ ٤٠٢. ولقد اكتفيت بذكر المعلومات التامة عن الكتاب في قائمة المراجع عن ذكرها في الهوامش.

المبحث الأول

حقيقة العذاب الأدنى





حقيقة العذاب الأدنى

كثيراً ما يذكر الله في كتابه الكريم العذاب الأكبر، ويتوعَّد بالعذاب الشديد، فتتداعى على الذهن أسماء هذا العذاب؛ كالحميم والزَّقُّوم والغسلين، وتنبعث في القلب صور السلاسل والأغلال والسرابيل والأصفاد، وترد على الفكر مشاهد الحساب والوزن والمساءلة والسوْق إلى الجحيم... إلى آخر ما هنالك من مشاهد وصور ومواقف وعرصات، ترتعد منها قلوب الذين يخشون ربهم، وتوجل منها نفوس عمرت بطاعة الله. ولعمر الحق، إن هذا الوعيد لكاف في ردع النفوس عن الهوى، وزجرها عن الردى.

ولكن تتقحم النفوس في شهواتها، وترتع في مراتع الغَيِّ، وتتجاوز الحدود الإلهية، فتجد أن الله ﷻ يتوعد المعاندين والمفسدين بعذاب دون العذاب الأكبر ـ لعل النفوس ترجع عن غيها، وتفيق من سكرتها ـ فيبين أنَّ ما أحلّه بالمعاندين من المثلات والنكال في الحياة الدنيا هو من العذاب الأدنى، فقال عز من قائل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

فما العذاب الأدنى؟ وما حقيقته؟ ولماذا ينزل؟ ومتى ينزل؟ ولماذا ينزل على قوم وينجو منه آخرون؟.

فالعذاب: هو النكال والعقوبة. يقال: عذبته تعذيباً وعذاباً[(١)].

---

(١) لسان العرب، مادة «عذب» ١/ ٥٨٣؛ وانظر: ترتيب القاموس ٣/ ١٧٦.

وفي هذه الآية الكريمة ـ التي عليها مدار البحث ـ جاء لفظ الأدنى، للتعبير عن العذاب الدنيوي، ولفظ الأدنى يقابله الأقصى، والأكبر يقابله الأصغر، فما الحكمة في مقابلة الأدنى بالأكبر في سياق هذه الآية الكريمة؟ قال الفخر الرازي ـ عفا الله عنه، موضحاً الحكمة من ذلك ـ: (حصل في عذاب الدنيا أمران: أحدهما أنه قريب، والآخر أنه قليل صغير، وحصل في عذاب الآخرة ـ أيضاً ـ أمران: أحدهما أنه بعيد، والآخر أنه عظيم كثير، لكن القرب في عذاب الدنيا هو الذي يصلح للتخويف به، فإن العذاب العاجل وإن كان قليلاً قد يحترز منه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلاً، وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس، ويستبعد الثواب العظيم الآجل، وأما في عذاب الآخرة، فالذي يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير، لا البعيد لما بيّنا، فقال في عذاب الدنيا: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ ليحترز العاقل عنه، ولو قال: (لنذيقنهم من العذاب الأصغر) ما كان يحترز عنه؛ لصغره وعدم فهم كونه عاجلاً، وقال في عذاب الآخرة: الأكبر؛ لذلك المعنى، ولو قال: دون العذاب الأبعد الأقصى لما حصل التخويف به، مثل ما يحصل بوصفه بالكبر. وبالجملة، فقد اختار الله تعالى في العذابين الوصف الذي هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما، لحكمة بالغه)[١].

أما حقيقة العذاب الأدنى: فهو: كلُّ عذاب عذب الله به أمةً من الأمم أو فرداً من الأفراد، في دار الدنيا أو في دار البرزخ[٢]، وسواء

(١) مفاتيح الغيب ١٥٨/٢٥.

(٢) سيأتي بيان ذلك عند بيان المراد من آية السجدة، وإيراد قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

أكان هذا العذاب عاماً كعذاب قوم نوح، أم كان خاصاً، كما حصل لقارون، وسواء أكان حسياً؛ كالغرق والخسف والمسخ والزَّلزلة والصَّيحة، أم كان معنوياً؛ كطمس الأبصار، والختم على القلوب، والطبع عليها، وعدم إجابة الدعاء، وتسليط الشياطين، وسواء أكان هذا الذنب تطاولاً على الخالق؛ كالشرك، وتكذيب الرسل، أم كان تعدياً على المخلوقين؛ كقتل المستضعفين، والتطفيف في الموازين، وقد يعجل الله العقوبة ويباغت بالذنب؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤، ٩٥]. وقال ﷻ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

وقد يجمع الله على المعاندين عذاب الدنيا وعذاب البرزخ، كما قال الله ﷻ مخبراً عن قوم فرعون، وأنه سلط الله عليهم الطوفان والجراد والقمل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣، ١٣٤]. وقال جل ثناؤه عن عذابهم في قبورهم: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] فالنار التي يعرضون عليها غدواً وعشياً؛ إنما يعرضون عليها وهم في قبورهم، كما سيأتي تفصيله، إن شاء الله.

وقد يتأخر العذاب الدنيوي، ويظن المغرور أنه على خير؛ خاصة

إذا رأى نِعَمَ الله متوالية عليه، ومِنَنَه مترادفةً إليه، ولا يعلم أن الله سريع العذاب، كما وقع لقوم لوط عليه السلام حينما كذبوه وخالفوا أمره، فدعا ربه عليهم؛ فإذا المراسيمُ الإلهية تتنزل بهلاكهم (فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيِّه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر؛ وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها، ورفعت نحو السماء، حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب، ونهيق الحمير، فبرز المرسوم الذي لا يرد، من عند الرب الجليل، على يدي عبده ورسوله جبرائيل، بأن يقلبها عليهم، كما أخبر به في محكم التنزيل، فقال عز من قائل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] فجعلهم آية للعالمين، وموعظة للمتقين، ونكالاً وسلفاً لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين)[١].

وقد يؤجل العذاب إلى الدار الآخرة؛ زيادة في النكال: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦]. ويحسب الكافر أن ما يملي له الله خير لنفسه ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. ويظن من لا خلاق له ولا علم عنده أنهم على هدى مستقيم؛ لما يرى من تمتُّعهم بالحياة، وسلامتهم من النكال، ولا يعلم أن ما هم فيه من متاع الحياة إنما هو من تعجيل جزائهم على أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: (فجوزوا من

---

(١) الجواب الكافي ص١٢١.

جنس عملهم، فكما متعوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي؛ جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المفظعة)[١]. وقال تعالى موضحاً أن ما يرزقون في هذه الحياة من المال والبنين وسعة العيش؛ إنما هو من المسارعة لهم في جزاء أعمالهم: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ويتنزل التوجيه القرآني تسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين ألّا يحزُنُهم تمتُّع الذين كفروا، ولا يغرنهم تقلبهم في البلاد ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]. وما ربك بظلام للعبيد؛ فهؤلاء قوم عملوا للحياة، ونذروا أنفسهم للحياة، رغبوا أن تكون حسناتهم في هذه الحياة؛ فكان الجزاء من جنس العمل. قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٦، ١٧].

ويقول الشيخ محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن كثيراً من الناس اليوم يعزون المصائب التي يصابون بها ـ سواء كانت المصائبُ ماليةً اقتصاديةً، أو أمنيةً سياسيةً ـ يعزون هذه المصائب إلى أسباب مادية بحتة، إلى أسباب سياسية، أو أسباب مالية، أو أسباب حدودية. ولا شك أن هذا من قصور أفهامهم، وضعف إيمانهم، وغفلتهم عن تدبر

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٦١.

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إن وراء هذه الأسباب أسباباً شرعيةً، أسباباً لهذه المصائب أقوى وأعظم تأثيراً من الأسباب المادية، لكن قد تكون الأسباب المادية وسيلةً لما تقتضيه الأسباب الشرعية من المصائب والعقوبات. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١][١].

وهذه العقوبات التي ذكرنا طرفاً منها ـ وسيأتي تفصيلها ـ يلحظ القارئ أن بين الذنب وبين العقوبة تناسباً عظيماً، فإذا منع العباد زكاة أموالهم؛ منعوا القطر من السماء، وإذا تركوا التحاكم إلى كتاب الله؛ جعل الله بأسهم بينهم، وإذا طلبوا كثرة المال من طريق الربا، محق الله أموالهم، وقد قال ابن القيم رحمه الله: (فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه، وأوفقها للعقل، وأقومها بالمصلحة، . . . إلى أن يقول: وعقوبات الذنوب نوعان: شرعية وقدرية، فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففتها، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على عبده بين العقوبتين إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب)[٢].

ويقول أيضاً: (والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع: إما في القلب، وإما في البدن، وإما فيهما، وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت، وعقوبات يوم عود الأجسام في الدار الآخرة، فالذنب لا يخلو من عقوبة ألبتة، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة؛ لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحا أحس بالمؤلم، فتُرتُّبُ العقوباتُ على الذنوب كترتُّب الإحراقِ على النار، والكسر على الانكسار، وقد تقارن المضرة الذنب، وقد

---

(١) أثر الذنوب والمعاصي على الفرد والمجتمع ص٩.
(٢) الجواب الكافي ص٧٧.

تتأخر عنه إما يسيراً وإما مدة، كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه، وكثيراً ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام، ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه، ولا يدري أنه يعمل، وعمله على التدريج شيئاً فشيئاً، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القذة بالقذة)[١].

وبعد بيان حقيقة العذاب، يتبقَّى في هذا المبحث مسائل، في بسطها وتناولها الإجابةُ على الأسئلة التي وردت في التمهيد، وهذه المسائل هي:

*** المسألة الأولى: هل عدم العقوبة الدنيوية دليلٌ على الرضا عن العاصي؟**

سبق الحديث في صدر هذا المبحث عن حقيقة العذاب، وأنه قد يعجّل وقد يؤخر، وقد يجمع على المعاند عذاب الدنيا، وعذاب البرزخ، وعذاب الدار الآخرة، وقد تعجل له طيباته في الدنيا، ويدخر له العذاب كاملاً في الدار الآخرة، وإذا كان ذلك كذلك فإن عدم حلول العقوبة العاجلة على العاصي ليس دليلاً على رضا الله عليه؛ بل هذا من مكر الله بأعدائه، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فلما نسوا ربَّهم سبحانه نسيهم، وأنساهم أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين:

إحداهما: أنه سبحانه نَسِيَه.

والثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيانُه سبحانه للعبد: إهمالُه وتركهُ، وتخلّيه عنه، وإضاعتُه،

---

(١) الجواب الكافي ص٨١، ٨٢.

ونسيانه، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم. وأمَّا إنساؤه نفسه: فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها وإصلاحها وما يكمِّلها، بِنَسْيه ذلك كلِّه جميعه، فلا يخطر بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همّته، فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره، وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها. وأيضاً فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول بها إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخنٌ بالمرض، ومرضُه مترامٍ به إلى التَّلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة للعامة والخاصة؛ فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه، وضيَّعها؟)[1].

هذا من وجه، ومن وجه آخر: ليعلم العبد أن كل شيء عنده ﷻ بقدر؛ كما قال جل ثناؤه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٦ ـ ٨] قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسير هذه الآية: (يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله، المشركين به، الذين وُعِظُوا فلم يتَّعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها؛ بل جاهروا بالإنكار، واستدلوا بحلم الله الواحد القهار عنهم، وعدم معاجلتهم بذنوبهم، أنهم على حق. إلى أن يقول: وكل شيء عنده بمقدار لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص إلا بما

(١) الجواب الكافي ص٧١، ٧٢.

تقتضيه حكمته وعلمه)[١].

واستدل القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال ـ بعد أن ذكر شيئاً من حكم خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام ـ: (وحكمةٌ أخرى خلقها في ستة أيام؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً. وبيّن بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عند أجلاً، وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾. بعد أن قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ [ق: ٣٦ ـ ٣٩])[٢].

ومن وجه آخر أيضاً، فإن للعذاب أجلاً مسمى وميقاتاً معلوماً لا يتأخر عنه ولا يتقدم، فانظر كم لبث نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في قومه يدعوهم ليؤمنوا، وهم يكذِّبونه ويتَّهمونه، قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، وكم أقام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعو فرعون وقومه، ولما استيأس من استجابتهم دعا عليهم؛ فقال الله له: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]. قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩] يقول: ولا تسلكان طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي، فتستعجلان قضائي، فإن وعدي لا خُلف له، وإن وعيدي نازلٌ بفرعون، وعذابي واقعٌ به وبقومه)[٣]. وأقام محمد ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً يحاور قومه، ويجادلهم، ويدعوهم،

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن ص٤١٤. (٢) الجامع لأحكام القرآن ٧/٢١٩.

(٣) جامع البيان ١/١٦١، ١٦٢؛ وانظر: تفسير القرآن العظيم ٢/٤٣٠؛ والدر المنثور ٤/٣٨٥؛ والجامع لأحكام القرآن ٨/٣٧٦.

ويقيم لهم الآيات والبراهين، وهم يقابلون ذلك كلَّه بالإنكار والتكذيب، حتى نزل بهم العذاب العاجلُ في يوم بدر.

*** المسألة الثانية: لماذا تفلت الدول المتغطرسة الظالمة من العقوبة، وتحلُّ العقوبات بالدول المسلمة؟!**

والجواب عن هذا السؤال من وجوه:

الأول: أن الدول الظالمة تحلُّ فيها المثلات كما تحل بغيرها؛ فاضطراب الأمن، والعجز الاقتصادي، وتفشي الأمراض، والفيضانات المدمِّرة، والحرائق المروعة، والحروب الطاحنة، كلُّ ذلك يحدث فيها؛ فقد خاضت هذه الدول حروباً راح ضحيَّتها الآلاف من أبنائها. فكم فقدت أوروبا من الملايين في الحربين العالميتين، وكم فقدت أمريكا وروسيا من جنودهما في السنوات الأخيرة، من خلال الحروب التي شنتها على بعض الدول المستضعفة؛ فخرجت منها خاسئةً حسيرةً، تجرُّ أذيال الهزيمة، وكذلك من العذاب الذي يصبُّه الله عليهم تفَرّق الدول وذهاب ريحها وتمزقها، فلقد كانت الإمبراطورية العظمى (بريطانيا) لا تغيب عنها الشمس، وكان الاتحاد السوفيتي مكوناً من دولٍ عدَّةٍ، فإذا هما مشرَّدتان على موائد الدول، تمارس عليهما الضغوط التي كانا يمارسانهما على من دونهما. أفلم يكن في زوال قوَّتهما وذهاب ريحهما عبرةٌ وآيةٌ؟ فكم شرَّدا وتجبَّرا، ومارسا الطغيان والظلم.

الثاني: أن الدول التي تظلم وتتعدى، ولا تنزل بها المثلات ينبغي أن ينظر إليها من باب الإملاء والإنظار والمكر، وتأخير العذاب إلى يوم القيامة؛ ليذوقوا العذاب الأليم كاملاً غير منقوص، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم

مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] فقد لا يشاهد المتعجِّل العذاب، ويظنُّ أن تقلّبهم في البلاد خير لهم.

الثالث: أن الدول المتقدمة قد تتخذ من الاحتياطات ما تخفِّف به وقع هذه الكوارث، ولكنها لا تستطيع أن تمنعها، كما لا تستطيع أن تعلم بها قبل وقوعها، وما تتوصل إليه في هذا الشأن ليس بسبب دينها - فقد تركته وراءها ظهرياً - بل لأنها بذلت الأسباب التي تحقق لها ذلك، ولو بذلها غيرها لتحقق له مثل ما تحقق لهم؛ لأن الله ﷻ جعل لهذا الكون سنناً ونواميس، من عمل بها وصل من خلالها إلى ما رتّب عليها.

الرابع: أن من يقع عنده مثل هذا الإشكال، فلأنه حصر نظره في فترة زمنية واحدة فيما يحُّ على هذه الدول، ونظر إلى كارثة واحدة، ولم ينظر إلى التاريخ البشري وما تتابع فيه من الآيات والنُّذر، ألم يقل الله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

الخامس: أنَّ العذاب إذا نزل على المسلمين، فهو رحمةٌ بهم، وتكفيرٌ لخطاياهم، وتذكيرٌ لهم لعلّهم يرجعون إلى ربهم، فيعبدونه حق عبادته. قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يعصونه فيدعوهم إلى بابه، ويجرمون فلا يحرمهم خيره وإحسانه، فإن تابوا إليه، فهو حبيبهم؛ لأنه يحبُّ التوَّابين، ويحب المتطهِّرين، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم،

يبتليهم بالمصائب؛ ليطهِّرهم من المعايب)[١]. وبيَّن ﷻ أن ما يبتلي به عباده المؤمنين إنَّما هو سبيل بشارةٍ لهم، وسبب مغفرةٍ ورحمة لهم، وصلاة عليهم، فقال عزَّ من قائلٍ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]. وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

السادس: أن هؤلاء الكفار وإن تمتعوا بشيء من عرض الدنيا، فلا يتحقق لهم كمال السعادة؛ بل هم في ضيق نفسيٍّ، واضطراب أسريٍّ، ومعاناةٍ من أمراض مقارفة الفواحش والآثام، واستغراقٍ في المخدرات، وإقدامٍ على الانتحار، بل إنَّ الدراسة التي أجراها كلٌّ من جيمس باترسون وبيتر كيم أفادت أن ٣٠٪ ممن شملتهم الدراسة كانوا يفكرون تفكيراً جاداً في الانتحار[٢]... إلى غير ذلك مِمَّا يعانونه كلُّ ذلك يدل على عقوباتٍ من هذا النوع.

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن ص٤١٣، ٤١٤.

(٢) يوم أن اعترفت أمريكا بالحقيقة، تأليف جيمس باترسون وبيتر كيم، نقله إلى العربية د. محمد البشر.

*** المسألة الثالثة: متى يكون العذاب خاصا، ومتى يكون عاما؟! وإذا وقعت العقوبة شملت الصالح والطالح، والمحسن والمسيء، فما مصير الصالح؟**

إن الله ﷻ له الحكمة البالغة، والأمر الرشيد، حكمُه العدل، وقولُه الحق، حرم الظلم على نفسه، وجعله بيننا محرماً، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، حجَّة على الخلق، وشرع التوبة، وأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لئلا يتنزَّل العذاب على عامة الأمة، قال ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٥ ـ ١١٧].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (وما كان ربك ـ يا محمد ـ ليهلك القرى التي أهلكها ـ التي قصَّ عليك نبأها ـ ظلماً، وأهلها مصلحون في أعمالهم غير مسيئين، فيكون إهلاكه إياهم ـ مع إصلاحهم في أعمالهم وطاعتهم ربَّهم ـ ظلماً، ولكنه أهلكها بكفر أهلها بالله، وتماديهم في غيِّهم، وتكذيبهم رسلهم وركوبهم السَّيئات)[١].

فإذا انتُهكت محارمُ الله، وعُصيتْ أوامرُه، واستُعْلِنَ بالفواحش؛ حلّ العذاب، ونزل النَّكال، وحاق بالمفسدين سوء أعمالهم، فيرسل الله عذابه ونقمته على المعاندين، كما قال تعالى مخبراً عن حال ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

(١) جامع البيان ١٢/ ١٤٠.

[فصلت: ١٧، ١٨]، وقال جلَّ ثناؤه في بيان خبر لوط مع قومه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٧]. فانظر كيف عمَّهم العذاب، وأنجى الله ﷻ بمنِّه وكرمه أولياءه وحزبه المفلحين.

وسألت أم المؤمنين زينب بنت جحش ﵂: هل ينزل العذاب وفي الأمة الصالحون؟ قائلةً: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟. فأجابها الذي لا ينطق عن الهوى، قائلاً: «نعم إذا كثُر الخَبَثُ!!»(١).

وبيّن النبي ﷺ أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأنهم وإن هلكوا مهلكاً واحداً، فإن الله يبعثهم على نيَّاتهم، فقال رسول الله ﷺ: «يغزو جيشٌ الكعبة، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض؛ خسف بأولهم وآخرهم». قالت عائشة: يا رسول الله! وفيهم سواهم، ومن ليس منهم؟. قال: «يُخْسَفُ بأولهم وآخرهم، ثم يُبعثون على نِيَّاتهم»(٢).

فيكون العذاب حينئذ عاماً إذا كان الفساد عامّاً، وينجِّي الله المتقين، ويكون النَّكال خاصّاً إذا كان المنكر خاصّاً غير مستعلن، كما قال عز من قائل في خبر قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، ح٣١٦٨، ٣/١٢٢١ واللفظ له؛ ومسلم، ح٢٨٨٠، ٤/٢٠٠٧.

(٢) صحيح ابن حبان، ح٦٧٥٥، ١٥/١٥٥؛ وانظر: صحيح مسلم، ح٢٨٨٤، ٤/٢٢١٠.

*** المسألة الرابعة: إذا كان الرسول ﷺ بعث رحمة، فكيف يقول المسلم: إن الآيات التي يسلطها الله على الخلق تُعَدُّ عذاباً لهم؟! فأين رحمة المسلم لغيره من البشر؟!**

من كمال رحمة الله ﷻ بخلقه أن أرسل إليهمُ الرسلَ، وأنزل إليهم الكتب، فكانت رسالات الرسل تجمع بين الدلالة على الخير والتحذير من الشر، ترغيباً وترهيباً، بشارةً ونذارةً، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وكانت رسالتهم هدايةً للناس ورحمةً، قال تعالى عن موسى عليه السلام ـ كما قال عن غيره ـ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧]. وقال عزَّ من قائل عن عيسى عليه السلام: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

ومع كونهم أُرسلوا رحمة للعالمين، فكلُّ رسول قال لقومه: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، فهذا نوح عليه السلام يقول كما أخبر الله عنه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وهذا شعيب يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]. وكذلك هود خاف على قومه، فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]. ودعا الخليل أباه إلى الله، وخوَّفه ممَّا يعلم، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥]. وهذا إمام الأنبياء والمرسلين ﷺ يخاف عذاب ربه، إن هو عصاه، ويأمره ربه أن يقول لقومه ـ كما ذكر الله عنه ـ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ

يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥]. ويأمر قومه بالاستغفار، ويخبرهم أنهم إن تولوا عن طاعة ربهم، فإنه يخاف عليهم العذاب الكبير، فقال عز من قائل: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

فكلُّ الأنبياء ـ ما عدا الخليلين ـ عليهم السلام لمَّا كُذّبوا دعوا على قومهم بالعذاب وبالاستئصال، فقال نوح عليه السلام، كما أخبر الله عنه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. وقال جلّ ثناؤه عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩].

وأخبر النبيُّ ﷺ أن الله تعالى جعل لكلِّ نبي دعوةً مستجابةً، وأن كلَّ نبي تعجَّلُ دعوتُه، وأنه ﷺ من رحمته بأمته ادَّخر دعوته شفاعةً لأمته يوم القيامة، فعن أنس عن النبي ﷺ قال: «كلُّ نبي سأل سؤلاً، أو قال: لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ قد دعا بها؛ فاستجيب، فجعلت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة»[1] وفي رواية أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ ـ إن شاء الله ـ من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ومحمدٌ وإبراهيم أفضل

(١) صحيح البخاري، ح٥٩٤٦، ٥/٢٣٢٣، واللفظ له، وصحيح مسلم، ح١، ١٩٩/١٨٩.

(٢) صحيح مسلم، ح١، ١٩٩/١٨٩.

الرسل؛ فإنهم إذا علموا الدعوة حصل المقصود، وقد يتوب منهم من يتوب بعد ذلك، كما تاب من قريش من تاب، وأمَّا حال إبراهيم، فكانت إلى الرحمة أمْيَلَ، فلم يَسْعَ في هلاك قومه؛ لا بالدعاء، ولا بالمقام ودوام إقامة الحجَّة عليهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٢، ١٣]. . . والخليلان هما أفضل الجميع، وفي طريقتهما من الرأفة والرحمة ما ليس في طريقة غيرهما)[١].

فنبيُّنا محمدٌ ﷺ رحمةٌ للعالمين من كلِّ وجه، باعتبار ما حصل من الخير العامِّ به، وما حصل للمؤمنين به من سعادة الدنيا والآخرة، وباعتبار أنه في نفسه رحمةٌ، فمن قَبِلَها وإلا كان هو الظالم لنفسه، وباعتبار أنه قمع الكفار والمنافقين، فنقص شرُّهم، وعجزوا عمَّا كانوا يفعلونه بدونه[٢].

فنبينا محمد ﷺ رحمةٌ للخلق في دعوته وفي سلمه وفي حربه، يقول ابن القيم رحمه الله: (وأما نبيُّ الرحمة، فهو الذي أرسله الله رحمةً للعالمين؛ فرحم به أهل الأرض كلَّهم، مؤمنهم وكافرهم؛ أما المؤمنون فنالوا النصيب الأوفر من الرحمة، وأما الكفار: فأهل الكتاب منهم عاشوا في ظلِّه وتحت حبله وعهده، وأما من قتله منهم هو وأمتُه، فإنهم عجَّلوا به إلى النار، وأراحوه من الحياة الطويلة التي لا يزداد بها إلا شدة العذاب في الآخرة)[٣].

---

(١) النبوات ص٢٩، ٣٠.
(٢) مجموع الفتاوى ١٧/ ٥١٦.
(٣) زاد المعاد ١/ ٩٥، ٩٦.

والعذاب والنَّكال الذي توعَّدت به الرسلُ أقوامَهم لم يكن مجرد تهديدٍ ووعيدٍ؛ بل إذا تنكَّبت الأقوام عن الصراط، وعاندت المرسلين، واستكبرت على ربِّ العالمين؛ فحينئذٍ يحقُّ القول، وينزل بهم ما كان أنذرهم إياه رسولهم، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وبين ﷻ أن هذا العذاب الذي يصيب به أعداءه، إنما هو عذاب خزي لهم في الحياة الدنيا، وهو عذاب هوانٍ لهم، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٦، ١٧]. وأخبر الحق ﷻ أن هذا العذاب المهين مستمر لكلٍّ من استكبر وطغى، فقال جل ثناؤه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

ونبينا محمد ﷺ لم يكن بدعاً من الرسل، فكما خاف على قومه المعاصرين له، وأنذرهم وخوَّفهم؛ فقد خوَّف اللاحقين من أمته، وحذَّرهم من المعاصي والذنوب عموماً، وحذَّرهم من معاص معينةٍ محدَّدةٍ بعينها، وأخبرهم بما يترتب عليها من العذاب العاجل(١)، فإخباره ﷺ أمته، وتحذيره إياها لا يتعارض مع كونه أرسل رحمةً

(١) انظر المبحث الثالث من هذا البحث، حيث ورد فيه عدد من الذنوب والمعاصي التي تترتب عليها عقوبات دنيوية عاجلة.

للعالمين، فمن كمال رحمته إنذارُه، ومن كمال رحمته أنه سأل ربَّه أن لا يُهلِكَ أمته بسَنَةٍ بعامّةٍ، حيث قال ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدةً: سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»(١). بل لمَّا بلغ به الأذى من قومه ما بلغ، وجاءه ملكُ الجبال يستأذنه في أن يطبق عليهم الأخشبين، قال مقالته الرحيمة المشهورة: «بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»(٢).

ومن واجبه إبلاغُ أمته بما ينتظرها، إن هي خالفت الأوامر الربانية، ومن كمال رأفته ورحمته أن يبين لأمته أسباب العذاب الذي يوشك أن يقع بها.

وحَمَلَةُ رسالته يقتدون بهديه، ويستنُّون بسنَّته، فيبشِّرون بما بشَّر به من سعة رحمة الله، وعظيم مغفرته، وفرحه بتوبة عبده، وينذرون بما أنذر به من أسباب الهلاك المترتِّب على مقارفة الذنوب والمعاصي. ولو لم يفعلوا، لكان ذلك خيانة منهم لأمتهم، ومعصيةً لرسولهم ﷺ.

فإذا وقع ما حذّر منه الرسول ﷺ، فهذا مصداقُ نبوَّته ﷺ، ثم إذا قام العلماء بواجب التنبيه والتذكير، فلا يتجه إليهم اللوم والتعنيف بسبب تحذيرهم وإنذارهم، ولا يعدُّ عملهم هذا من باب الشماتة بمن وقعت عليهم هذه الأحداث، كما لا يعدُّ قولهم هذا تزكيةً لأنفسهم ومجتمعهم، بل الجميع عرضة للخطأ، وعرضة لنزول العذاب إذا قارفوا أسبابه، وتعرضوا لما يسخط الجبار، ﷻ.

---

(١) صحيح مسلم، ح٤، ٢٨٩٠/٢٢١٦.
(٢) صحيح البخاري، ح٣، ٣٠٥٩/١١٨٠؛ وصحيح مسلم، ح٣، ١٧٩٥/١٤٢٠.

*** المسألة الخامسة: ما الفرق بين الابتلاء للمؤمنين والعذاب للمعاندين؟**

ينبغي أن يُعلمَ أن الدنيا دار كبد وبلاء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]. وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وأخرج أبو جعفر ابن جرير الطبري بسنده عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: «أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله»[(١)].

فالله ﷻ خلق الخلق ليعبدوه؛ وابتلاهم بالحسنات والسيئات، بالخير والشر؛ لينظر أيُّهم أحسن عملاً، فمن أحسن فله الحسنى وزيادة، ومن أساء فله السوء بما قدَّمت يداه، وقد يَبتلي الله الصالحين بالبلاء؛ رفعةً لدرجاتهم، وتمحيصاً لسيئاتهم، وليقتدي فيهم غيرهم، بالصبر والشكر على أقدار الله، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

وأخرج الحاكم في المستدرك عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، قال: سألت رسول الله ﷺ: من أشدُّ الناس بلاءً؟ قال: «النبيون، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يبتلى الرجلُ على حسب دينه؛ إن كان صلب الدين اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّةٌ، ابتلي على حسب

---

(١) جامع البيان ١٢/ ٥.

دينه، فما يبرح البلاء على العبد حتى يدعه يمشي على الأرض ليس عليه خطيئةٌ»(١).

وبوّب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه بقوله: باب أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأول فالأول، وأورد فيه حديث عبد الله، قال: دخلت على رسول الله ﷺ ـ وهو يوعك ـ فقلت يا رسول الله، إنَّك لتوعك وعْكاً شديداً؟! قال: «أجل، إني أوعكُ كما يُوعَكُ رجلان منكم». قلت: ذلك بأنَّ لك أجرين، قال: «أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى ـ شوكةٌ فما فوقها ـ إلا كفّر الله بها سيئاته كما تحطُّ الشجرة ورقها»(٢).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ووجه دلالة حديث الباب على الترجمة من جهة قياس الأنبياء على نبينا محمد ﷺ، وإلحاق الأولياء بهم لقربهم منهم، وإن كانت درجتُهم منحطةً عنهم، والسرُّ فيه: أن البلاء في مقابلة النعمة، فمن كانت نعمة الله عليه أكثر كان بلاؤه أشدَّ، ومن ثَمَّ ضُوعِفَ حدُّ الحُرِّ على العبد، وقيل لأمهات المؤمنين: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. قال ابن الجوزي: (في الحديث دلالة على أن القويَّ يحمَّلُ ما حُمِّل، والضعيف يُرفَقُ به، إلا أنه كلَّما قويت المعرفةُ بالمبتلي هان عليه البلاءُ، ومنهم من ينظر إلى أجر البلاء فيهون عليه البلاء)(٣).

وسئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ متى يعرف العبد أن هذا الابتلاء امتحانٌ أو عذابٌ؟ إذا ابتُلي أحد بمرض أو بلاء سيِّئ في النفس أو المال، فكيف يعرف أن ذلك الابتلاء امتحانٌ أو غضبٌ من عند الله؟!.

---

(١) المستدرك، ح١، ١٢١/٩٩.
(٢) صحيح البخاري، ح٥، ٥٣٢٤/٢١٣٩.
(٣) فتح الباري ١٠/١١٢.

فأجاب: الله ﷻ يبتلي عباده بالسَّرَّاء والضَّرَّاء، وبالشدة والرخاء، وقد يبتليهم بها لرفع درجاتهم، وإعلاء ذكرهم، ومضاعفة حسناتهم، كما يفعل بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والصُّلحاء من عباد الله، كما قال النبي ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثل فالأمثل»[١]، وتارة يفعل ذلك سبحانه بسبب المعاصي والذنوب، فتكون العقوبة معجلة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. فالغالب على الإنسان التقصير، وعدم القيام بالواجب، فما أصابه فهو بسبب ذنوبه وتقصيره بأمر الله، فإذا ابتلي أحد من عباد الله الصالحين بشيء من الأمراض أو نحوها؛ فإن هذا يكون من جنس ابتلاء الأنبياء والرسل، رفعاً في الدرجات، وتعظيماً للأجور، وليكون قدوة لغيره في الصبر والاحتساب، فالحاصل أنه قد يكون البلاء لرفع الدرجات، وإعظام الأجور، كما يفعل الله بالأنبياء وبعض الأخيار، وقد يكون لتكفير السيئات كما في قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]. وقول النبي ﷺ: «ما أصاب المسلم من همٍ، ولا غمٍّ، ولا نصبٍ، ولا وصبٍ، ولا حزن، ولا أذىً، إلا كفَّر الله به من خطاياه حتى الشوكةُ يشاكُها»[٢]، وقوله ﷺ: «من يُرِدِ اللهُ به خيراً يُصِبْ منه»[٣].

وقد يكون ذلك عقوبة معجلة بسبب المعاصي، وعدم المبادرة للتوبة، كما في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشَّرَّ أمسك عنه بذنبه

(١) سبق تخريجه.
(٢) صحيح البخاري، ح٥٣١٨، ٥/ ٢١٣٧.
(٣) المصدر السابق، ح٥٣٢١، ٥/٢١٣٨.

حتى يوافي به يوم القيامة». خرّجه الترمذي وحسنه)[١].

ونخلص من هذه المسألة إلى الحقائق التالية:

١ ـ أن الحياة الدنيا دارُ كبدٍ وعناء، وليست دار نعيمٍ وهناءٍ خالصٍ لا شائبة فيه.

٢ ـ أن الله ﷻ خلق الخلق ليعبدوه، فابتلاهم بالحسنات والسيئات لينظر أيهم أحسن عملاً.

٣ ـ أن الله تعالى ـ وله الحكمة البالغة ـ يبتلي المؤمنين؛ رفعةً للدرجات، وتعظيماً للأجور.

٤ ـ أن الله جل ثناؤه يبتلي عباده؛ ليميز الخبيث من الطيب، وليتميَّز المؤمنُ من المنافق، قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

٥ ـ أن ما يقدره الله ﷻ ـ على العباد والبلاد ـ فله فيه جلَّ ثناؤه الحكمة البالغة، والأمر الرشيد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤، ٥].

٦ ـ أن الله ﷻ ـ وهو الغنيُّ الحميد ـ أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأقام الحجَّة على الخلق، فمن تنكَّب عن الصراط، وخالف المنهج، فنزل به ما توعّد به؛ فقد أحقّ العذاب على نفسه ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

---

(١) مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز، إعداد عبد الله بن محمد الطيار ٢/٤٧٨ ـ ٤٨٨. والحديث في سنن الترمذي، ح٢٣٩٦، ٤/٦٠١.

٧ ـ أنه ما من مصيبة تنزل في الناس أو تحلُّ في الديار والبلاد، إلا وهي مقدَّرةٌ مكتوبةٌ في كتاب عند ربي، لا يضلُّ ربي ولا ينسى، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

٨ ـ أنه ما من وَصَبٍ ولا نَصَبٍ يصيبُ العبد، أو بلاءٍ عامٍّ يصيب الأمة إلا بسبب ما كسبته أيديهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

٩ ـ أن من البلاء ما يكون رفعةً لبعض أولياء الله، وتعظيماً لأجورهم.

وبعد بيان حقيقة العذاب الأدنى، يحسُنُ بنا أن نقف على الآية الكريمة التي كانت سبباً في بحث هذا الموضوع، وما دلَّت عليه، وننظر في نظائرها ودلالاتها، فنسأل الله الإعانة والتوفيق.

المبحث الثاني

آية السجدة ونظائرها




آية السجدة ونظائرها

سبق الحديث في مقدمة هذا البحث أن آية السجدة هي التي دفعتني إلى ارتياد هذا البحث، وسبْر غورِه، واستكمال جوانبه. وفي هذا المبحث سأُورِد هذه الآية ونظائرها، وأبيِّن المعاني التي اتفقت فيها، وأستجلي العبر التي اشتملت عليها، وإنَّما قدَّمتُ آية السجدة، وإن كان الأولى أن يُقدَّمَ عليها غيرُها؛ بسبب تقدمها في الورود في القرآن الكريم؛ لأن آية السجدة هي الآية الصريحة في هذا الشأن، فأقول مستعيناً بالله:

أولاً: آية السجدة:

قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]. هذه الآية هي مدار البحث. وبيان المراد بالعذاب الأدنى في هذه الآية ييسِّر فهم المراد من نظائرها في القرآن الكريم، ويعزِّز ما أشرت إليه في صدر هذا البحث.

اختلف أهل التفسير في معنى العذاب الأدنى الذي وعد الله أن يذيقه هؤلاء الفسقة على أربعة أقوال:

القول الأول: أنَّ المراد به مصائب الدنيا وأسقامها وبلاؤها في الأنفس والأموال ممَّا يبتلي الله بها العباد حتى يتوبوا. فممن قال بهذا القول: ابن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأُبيُّ بن كعب رضي الله عنهم[1]، وأبو

---

(١) رواه مسلم ٤/٢١٥٧.

العالية، والضَّحَّاك، والحسن، وإبراهيم النَّخعي، وعلقمة، وعطية، ومجاهدٌ، وقتادة، رحمهم الله. ويرى أصحاب هذا القول: أن ما مضى من البطشة[١] واللِّزام[٢] والدُّخان[٣]، وما أصاب كفَّار قريش من القتل والسَّبي يوم بدر ـ أنها من هذا العذاب المشار إليه؛ إذ هي من مصائب الدنيا[٤].

وقال السيوطي في «تفسيره»: أخرج ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني ﷺ قال سألت عبادة بن الصامت ﷺ عن قول الله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ فقال: سألت رسول الله ﷺ عنها. فقال: «هي المصائب والأسقام والأنصاب، عذاب للمسرف في الدنيا دون عذاب الآخرة». قلت: يا رسول الله! فما هي لنا؟ قال: «زكاةٌ وطهورٌ»[٥].

القول الثاني: المراد به عذاب القبر. وهو مرويٌّ عن البراء بن عازب وأبي عبيدة ومجاهدٍ[٦].

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [الفرقان: ٧٧]. أي: يكون عذاباً لازماً لهم نتيجة تكذيبهم، وهو ما وقع لكفار قريش في بدر من القتل والأسر. انظر: تفسير البغوي ٣/ ٣٨٠؛ وشرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٤٣.

(٣) هو الدخان الوارد في قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، على أحد تفسيري الآية.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ١٠٨، ١٠٩؛ وانظر: تفسير الثوري ١/ ٢٤٠؛ وتفسير عبد الرزاق الصنعاني ٣/ ١١٠؛ والدر المنثور ٦/ ٥٥٤.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٥٥٤.

(٦) تفسير الطبري ٢١/ ١١٠؛ والدر المنثور ٦/ ٥٥٤؛ وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٣.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (وقد احتجَّ بهذه الآية جماعةٌ؛ منهم عبد الله بن عباس على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعى به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وتُرجمان القرآن، لكن من فقهه في القرآن ودقَّة فهمه فيه، فَهِمَ منها عذاب القبر؛ فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين: أدنى، وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا، فدلَّ على أنه بقي لهم من الأدنى بقيةٌ يعذَّبون بها بعد عذاب الدنيا، ولهذا قال: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى، فتأمَّله. وهذا نظيرُ قول النبيِّ: «فيفتح له طاقةٌ إلى النار، فيأتيه من حرِّها وسمومها». ولم يقل: فيأتيه حرُّها وسمومها. فإن الذي وصل إليه بعضُ ذلك، وبقي له أكثرُه، والذي ذاقه أعداءُ الله في الدنيا بعضُ العذاب، وبقي لهم ما هو أعظمُ منه)[1].

القول الثالث: المراد به الحدود. وممَّن قال بهذا القول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا[2].

القول الرابع: المراد به السَّيف. وهو مرويٌّ عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، قال: هو القتل بالسيف، كلُّ شيء وعد الله هذه الأمة من العذاب الأدنى إنما هو السيف[3].

ويرى ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ أن أولى الأقوال في ذلك أن يقال: (إن الله وعد هؤلاء الفسقة المكذبين بوعيده في الدنيا العذاب الأدنى أن يذيقهموه دون العذاب الأكبر، والعذاب: هو ما كان في الدنيا من بلاءٍ أصابهم،

---

(١) الروح ١/٧٦.

(٢) تفسير الطبري ٢١/١٠٩؛ والدر المنثور ٦/٥٥٤؛ وتفسير ابن كثير ٣/٤٦٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢١/١٠٩.

إما شدةٌ من مجاعةٍ، أو قتلٍ، أو مصائب يصابون بها، فكلُّ ذلك من العذاب الأدنى، ولم يخصِّص الله تعالى ذكره، إذ وعدهم ذلك أن يعذِّبهم بنوع من ذلك دون نوعٍ، وقد عذَّبهم بكل ذلك في الدنيا بالقتل والجوع والشدائد والمصائب في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم)[١].

ثانياً: نظائر الآية:

الآية الأولى: قوله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

ومعنى الآيتين متفقٌ مع الآية السابقة في أن الله ﷻ يأخذ عباده المكذِّبين بأنواع العقوبات؛ لعلهم يرجعون، ففي هذه الآية يذكر الله جل ثناؤه أنه أرسل إلى الأمم السابقة المكذبة رسله، فكذبوهم فأخذهم بالبأساء والضراء، فما المراد بالبأساء والضراء؟ وهل النكال الوارد في هذه الآية مماثل لما ورد في الآيات الأخرى؟.

فلننظر إلى ما قاله المفسرون في معنى هذه الآية، فنجد أن المفسرين اختلفوا في المراد بالبأساء والضراء على أقوال، كما اختلفوا في المراد بالعذاب الأدنى:

القول الأول: البأساء: الفقر، وبه قال عبد الله بن مسعود وابن عباس وأبو العالية والحسن في أحد قوليه، ومُرَّةُ الهمْداني وسعيد بن جبير ومجاهد والضَّحَّاك والربيع بن أنس والسُّدِّيُّ ومقاتل بن حيَّان وابن جريج[٢].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١١٠

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٨؛ وتفسير الطبري ٢/ ٩٨، ٩٩؛ والدر المنثور ١/ ٤١٠؛ وتفسير ابن كثير ١/ ٢٥٢؛ والمصنف لابن أبي شيبة ٧/ ١٦٤.

خرّج الحاكم في المستدرك: (عن عبد الله بن مسعود ﷺ في قول الله ﷻ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: ١٧٧] قال عبد الله: البأساء: الفقر، والضَّرَّاء: السّقم، وحين البأس: قال: حين القتل). وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[١].

القول الثاني: البأساء: البؤس، وبه قال مجاهد وقتادة[٢].

القول الثالث: البأساء: البلاء، وبه قال الحسن[٣].

القول الرابع: البأساء: الخوف من السلطان، وبه قال سعيد بن جبير[٤].

أما المراد بالضَّرَّاء، فقد ذكر المفسرون من معانيها ما يلي:

١ ـ السقم، وقد قال أيوب ﷺ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. وبه قال عبد الله بن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومُرَّةُ الهمْداني وأبو مالك والضحاك والحسن ومجاهد والسدي والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان[٥].

٢ ـ البلاء والشدة، وبه قال سعيد بن جبير[٦].

الآية الثانية: قوله عز شأنه وتعالى سلطانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِى قَرۡيَةٍ

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٢٩٩.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤/١٢٨٨؛ وتفسير الطبري ٢/ ٩٨.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٨.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٨.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٤/١٢٨٩؛ وتفسير الطبري ٢/ ٩٨؛ والدر المنثور ١/ ٤١٠؛ وتفسير ابن كثير ١/ ٢٥٢؛ والمصنف لابن أبي شيبة ٧/ ١٦٤.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٩.

مِن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤، ٩٥].

سبق الحديث في الآية السابقة على المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ مما أغنى عن إعادته هنا. لذا سأقتصر على بيان المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

فأقول: تكاد تتفق عبارات المفسرين على معنى الحسنة والسيئة المذكورتين في الآية الكريمة، فقد فسروا السيئة بالشدة، والشر، وما يستكره في هذه الحياة، وما يسوء. وفسروا الحسنة بالرخاء، والمال، والعدل، والولد، وما أحبوا في هذه الحياة الدنيا. وممن قال بذلك ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة ومجاهد وابن زيد[1].

وبيَّن ابن كثير رحمه الله الحكمة من تبديل السيئة بالحسنة؛ فقال: (يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعني بالبأساء: ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك؛ لعلهم يضَّرعون؛ أي: يدعُون ويخشعون، ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم. وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا، فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء؛ ليختبرهم فيه، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ أي: حولنا الحال من شدة

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٩/٧؛ وتفسير الصنعاني ٢/٢٣٣؛ وتفسير ابن أبي حاتم ٥/١٥٢٦؛ والدر المنثور ٣/٥٠٥؛ وتفسير ابن كثير ٢/٢٣٤.

إلى رخاء، ومن مرض وسُقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى؛ ليشكروا على ذلك فما فعلوا... وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء، كما ثبت في الصحيحين: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له»[1]. فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضَّرَّاء والسَّرَّاء، ولهذا جاء في الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم ربطه أهله، ولا فيم أرسلوه»[2].

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قال أبو جعفر ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول جل ثناؤه: (اختبرناهم بالرخاء في العيش، والخفض في الدنيا، والدَّعة والسَّعة في الرزق، وهي: الحسنات التي ذكرها جل ثناؤه، ويعني بالسيئات: الشدة في العيش والشَّظَف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال؛ ليرجعوا إلى طاعة ربهم، وينيبوا إليها، ويتوبوا من معاصيه)[3].

وجاء عند ابن أبي حاتم وابن كثير والسيوطي رحمهم الله أن المراد بالحسنات: الخصب والرخاء والعافية. وأن المراد بالسيئات: الجدب والبلاء والعقوبة[4]. وهو ـ كما يلحظ القارئ ـ معنى مقارب

---

(١) صحيح مسلم، ح٢٩٩٩، ٤/ ٢٢٩٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣٤. (٣) تفسير الطبري ٩/ ١٠٤.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٠٦؛ وتفسير الطبري ٩/ ١٠٤؛ وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٦؛ والدر المنثور ٣/ ٥٩٣.

لما ورد عند ابن جرير، وهو المعنى نفسه الذي أشارت إليه الآية السابقة.

الآية الرابعة: قوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

هذه الآية خالفت الآيات السابقات من وجوه؛ نذكر منها:

الوجه الأول: ذكر الله ﷻ في الآيات السابقات أنه يبتليهم بالبأساء والضراء، وبالحسنات والسيئات، ولم يحدِّدْ ﷻ لذلك زمناً؛ بل جعل العمر كله ميداناً للابتلاء. وفي هذه الآية نبههم المولى إلى أنهم يتعرضون للاختبار في كل عام مرة أو مرتين، ومع ترادف البلاء، وتوالى النقم، إلا أنهم في غيهم سادرون، قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: (أولا يرى هؤلاء المنافقون أن الله يختبرهم في كل عام مرة أو مرتين، بمعنى: أنه يختبرهم في بعض الأعوام مرة، وفي بعضها مرتين، ثم لا يتوبون، يقول: ثم هم ـ مع البلاء الذي يحُلُّ بهم من الله، والاختبار الذي يعْرِضُ لهم ـ لا ينيبون من نفاقهم، ولا يتوبون من كفرهم، ولا هم يتذكرون بما يرون من حجج الله، ويعاينون من آياته فيتّعظوا بها؛ ولكنهم مُصِرُّون على نفاقهم)[١].

الوجه الثاني: ذكر الله ﷻ في الآيات المتقدمات أنه يبتليهم بالخير والشر، وبالحسنات والسيئات، ولكن في هذه الآية ذكر أنه يفتنهم في كل عام مرة أو مرتين، فما المراد بالفتنة[٢] في هذه الآية؟.

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٧٣؛ وانظر: التحرير والتنوير ١١/ ٦٧.

(٢) ترد الفتنة في القرآن الكريم على معانٍ متعددة، فتارة ترد ويراد بها إدخال الإنسان في النار، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾. وتارة يسمى ما يحصل عنه العذاب فتنة؛ كقوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، وتارة تأتي =

اختلفت أقوال المفسرين في المراد بها على أربعة أقوال:

القول الأول: هو ما يشيع المشركون من الأكاذيب على رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ فيُفْتَنُ بها الذين في قلوبهم مرضٌ. وهذا القول رواه أبو الضحى عن حذيفة ﷺ حيث قال: كنا نسمع في كل عام كذبةً أو كذبتين، فيضِلُّ بها فئام من الناس كثير[١]. وروى مثله ابن مردويه عن أبي سعيد[٢].

القول الثاني: هو الجهاد والغزو. وبه قال قتادة والحسن في قوله تعالى: ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾. قال: يبتلون بالغزو في كل عام مرة أو مرتين[٣].

القول الثالث: هو السنة والجوع. وبه قال مجاهد[٤].

القول الرابع: هو المرض، وهو مرويٌّ عن ابن عباس ﷺ، وبه قال بكار بن مالك. وأخرج أبو الشيخ عن العُتبيِّ، قال: إذا مرض العبد ثم عوفي، فلم يزدد خيراً؛ قالت الملائكة ﷺ: هذا الذي داويناه فلم ينفعه الدواء[٥].

= بمعنى الاختبار؛ كقوله جل ثناؤه: ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾، وتأتي بمعنى الشرك؛ كقوله سبحانه: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾. انظر: المفردات ص٣٧٢، مادة «فتن».

(١) انظر: تفسير الطبري ١١/ ٧٤؛ وتفسير ابن أبي حاتم ٦/١٩١٦.

(٢) انظر: الدر المنثور ٤/ ٣٢٥.

(٣) انظر: تفسير الصنعاني ٢/ ٢٩١؛ وتفسير الطبري ١١/ ٧٣؛ وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩١٥، ١٩١٦؛ والدر المنثور ٤/ ٣٢٥؛ وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٠٤؛ وتفسير القرطبي ٨/ ٢٩٩؛ وتفسير الرازي ١٦/ ١٨٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١١/ ٧٤؛ وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩١٥؛ والدر المنثور ٤/ ٣٢٥؛ وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٠٤؛ وتفسير القرطبي ٨/ ٢٩٩؛ وتفسير الرازي ١٦/ ١٨٤.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٣٥٢. انظر: تفسير القرطبي ٨/ ٢٩٩. تفسير الرازي ١٦/ ١٨٤.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ساق هذه الأقوال: (وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن الله عجّبَ عبادَه المؤمنين من هؤلاء المنافقين، ووبخ المنافقين في أنفسهم بقلة تذكّرِهم، وسوء تنبُّههم لمواعظ الله التي يعظهم بها. وجائز أن تكون تلك المواعظ الشدائد التي ينزلها بهم من الجوع والقحط، وجائز أن تكون ما يريهم من نصرة رسوله على أهل الكفر به، ويرزقه من إظهار كلمته على كلمتهم، وجائز أن تكون ما يظهر للمسلمين من نفاقهم، وخبث سرائرهم بركونهم إلى ما يسمعون من أراجيف المشركين برسول الله ﷺ وأصحابه، ولا خبر يوجب صحة بعض ذلك دون بعض من الوجه الذي يجب التسليم له، ولا قول في ذلك أولى بالصواب من التسليم لظاهر قول الله: وهو أولا يرون أنهم يختبرون في كل عام مرة أو مرتين بما يكون زاجراً لهم، ثم لا ينزجرون ولا يتعظون)[1].

الآية الخامسة: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

اختلف المفسرون في المراد بالعذاب الوارد في هذه الآية على أقوال؛ منها:

القول الأول: أن المراد به عذابٌ خاصٌّ أرسله الله على قريش حين كذبوا رسوله ﷺ فدعا عليهم. ولذا ذكر ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين أخذ الله قريشاً بسِنِيّ الجدب؛ إذ دعا عليهم رسول الله ﷺ.

وأخرج عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ

(١) تفسير الطبري ١١/ ٧٤.

فقال: يا محمد! أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العِلْهِز ـ يعني الوَبَر والدم ـ فأنزل الله هذه الآية(١).

القول الثاني: أن المراد به جور السلطان ونقمته، وقال الحسن في معنى هذه الآية: إذا أصاب الناس من قبل السلطان بلاءٌ، فإنما هي نقمة، فلا تستقبلوا نقمة الله بالحميّة، ولكن استقبلوها بالاستغفار، وتضرعوا إلى الله، وقرأ هذه الآية(٢).

القول الثالث: أن المراد به الجوعُ والجدبُ، وهو مرويٌّ عن ابن جريج(٣) ومجاهد(٤).

القول الرابع: أن المراد به المصائب والشدائد، وهو ما فسَّر به ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآية(٥).

وهذه الأقوال لا تخرج عمَّا فسرها به ابن كثير؛ فالجوع والجدب وجور السلطان كلُّها من المصائب والشدائد، وسواء كان الجوع خاصاً بقوم قريش، أم كان عامّاً لكلٍّ من خالف وعصى؛ فكلُّه داخلٌ تحت العذاب الذي توعَّد به المعاندين والمستكبرين.

الآية السادسة: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٧].

في الآية السابقة ذكر الله جلَّ ثناؤه، وتقدَّست أسماؤه، أنه أخذ

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٤. وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى النسائي، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل ٦/ ١١١.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٤٥؛ وانظر: الدر المنثور ٦/ ١١١.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٤٥.

(٤) الدر المنثور ١٠/ ٦١١.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥٢، ٢٥٣؛ وانظر: تفسير الطبري ١٨/ ٤٤.

أعداءه بالعذاب، وفتح عليهم باب عذاب، وتنوّعت اجتهادات المفسرين في بيان العذاب الذي أنزله الله على هؤلاء المكذبين، وإن كانوا اتفقوا على أن سبب النزول هو مجيء أبي سفيان إلى الرسول ﷺ يشكو إليه ما أصاب قريشاً من الجوع والجهد.

فما المراد بالعذاب المذكور في هذه الآية؟ وهل هو مختلف عن العذاب المذكور في الآية السابقة أم لا؟

فأقول: اختلف أهل التفسير في ذلك على أقوال؛ منها:

القول الأول: هو عذاب القبر. وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما. فقد روى قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول: إنكم لتجدون عذاب القبر في كتاب الله ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾[1]. وهو قول البراء - أيضاً - كما أخرجه ابن جرير[2].

القول الثاني: هو الجوع. أو الجوع لقريش في الدنيا. وهو مرويٌّ عن مجاهد عن طريق ابن أبي نجيح[3].

القول الثالث: هي المصائب التي تصيبهم في الدنيا من ذهاب الأموال والأولاد. وهذا مرويٌّ عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم. إلى أن قال: فهي للمؤمنين أجرٌ وثواب عند الله، ومصائبُ هؤلاء عجلهم الله إياها في الدنيا[4].

وبعد أن أورد ابن جرير رحمه الله هذه الأقوال، وجمع بينها، وبيّن القول الجامع لها، قال:

---

(١) تفسير الطبري ٢٧/ ٣٦، ٣٧؛ وانظر: تفسير الصنعاني ٣/ ٢٤٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٧/ ٣٧.

(٣) تفسير الصنعاني ٣/ ٢٤٨؛ وتفسير الطبري ٢٧/ ٣٧؛ والدر المنثور ٧/ ٦٣٦.

(٤) تفسير الطبري ٢٧/ ٣٧.

(والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم به عذاباً دون يومهم الذي فيه يصعقون، وذلك يوم القيامة، فعذاب القبر دون يوم القيامة؛ لأنه في البرزخ؛ والجوع الذي أصاب كفار قريش، والمصائب التي تصيبهم في أنفسهم وأموالهم وأولادهم دون يوم القيامة، ولم يخصِّص الله نوعا من ذلك أنه لهم دون يوم القيامة دون نوع، بل عمَّ، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾. فكلُّ ذلك لهم عذاب، وذلك لهم دون يوم القيامة، فتأويلُ الكلام: وإن للذين كفروا بالله عذاباً من الله دون يوم القيامة، ولكن أكثرهم لا يعلمون بأنهم ذائقوا ذلك العذاب)[١].

ويوضِّح ابن كثير غفلة المنافق عن ابتلاء الله له بالمصائب والنَّكبات، فيقول: (إن المنافق إذا مرض وعُوفي، مَثَلُه في ذلك كمثل البعير، لا يدري فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه. وفي الأثر الإلهي: كم أعصيك ولا تعاقبني. قال الله تعالى: يا عبدي! كم أعاقبُك وأنت لا تدري)[٢].

وبعد استعراض هذه الأقوال في بيان المراد بالعذاب في هذه الآية، ومقارنته بالمراد بالعذاب الوارد في الآية السابقة؛ نجد أن المراد بالعذاب في الآيتين يكاد يكون متفقاً، عدا أنه ذكر من جملة العذاب المتوعد به في آية الطور ـ عذاب القبر.

وبعد أن استعرضنا هذه الآيات الكريمات يتبين لنا أنها من نظائر قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وأن الألفاظ القرآنية التي تضمنتها للدلالة على المراد هي الألفاظ التالية:

---

(١) تفسير الطبري ٢٧/٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٢٤٦.

١ ـ العذاب.
٢ ـ السيئة والحسنة، أو السيئات والحسنات.
٣ ـ الفتنة.
٤ ـ البأساء والضَّرَّاء.

ويتضح من تدبُّرِ هذه الآيات، والنظر في أقوال أهل العلم أن معاني هذه الألفاظ القرآنية لا تكاد تخرج عن مصائب الدنيا من: الهلاك، والشدة، والشر، والبؤس، والسقم، والسيف، وشظف العيش، والرزايا، والفقر، والجوع، والجهاد، والغزو، وفتنة المنافقين بأقوالهم، والحدود، وعذاب القبر.

وإذا علمنا أن هذه المصائب والنكبات وأنواع العذاب هي مما يعاقب الله به عباده إذا عصوا أمره، وخالفوا شرعه، فما الأسباب الجالبة للعذاب الدنيوي؟

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول الكريم ﷺ يقف على عبر عظيمة، ودلالات كثيرة، مما قصه الله ورسوله ﷺ علينا من أخبار الأمم الماضية، أو مما حذرنا الله ورسوله ﷺ من الوقوع فيه من أصناف المنكرات التي تستنزل غضب الله ومقته.

وفي المبحث التالي نستنبط من دلالات النصوص ما وقفنا عليه من أسباب العذاب الذي حُذِّرنا منه؛ علَّها تكون عبرةً لنا؛ لئلا نقع فيها، فتنزل بنا عواقبُها الوخيمةُ، أجارنا الله منها.

المبحث الثالث

الأسباب





الأسباب

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] فالله ﷻ قد جعل لكل شيء سبباً، فللخير أسبابٌ، وللشر أسبابٌ، فمن بذل للخير أسبابه أوشك أن يدركه، ومن سعى إلى الشر واتخذ له أسبابه؛ نزل ببابه، وضرب حوله أطنابه.

والأسباب التي ورد الشرع الحنيف بذكرها، وبيَّن أن المتلبس بها حَرِيٌّ أن تنزل به عواقبُها، وتحيط به آثارها، تنقسم قسمين:

أسباب تجلب العذاب في الدنيا.

أسباب تجلب العذاب في القبر.

ومن هذه الأسباب ما يلي:

أولاً: تكذيب الرسل:

خلق الله الخلق لعبادته؛ ومن أجل ذلك أرسل الرُّسل، وأنزل الكتب، وأيَّدهم بالآيات الحسِّيَّة والمعنوية، وأيدهم بالبراهين القاطعة، والحجج الدامغة، سواء منها ما كان مبثوثاً في هذا الكون الفسيح، أو كان مستقراً في نفوس الخلق ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. ووعد المؤمنين بهم بالنعيم المقيم في الدنيا والآخرة، وتوعد المخالفين بالعذاب والنَّكال في الدنيا والآخرة، وأخبر الحقُّ ﷻ عمَّا حلَّ بالأمم السابقة، فقال عن قوم

نـــوح: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩، ١٢٠]. وقال عن قوم إبراهيم: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥] وقال ﷻ عن العذاب الذي أرسله على قوم فرعون لما كذبوا موسى ﵇: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. فهذا العذاب أرسله اللهُ عليهم في حياتهم الدنيا، ثم قال تعالى عن العذاب الذي أعده لهم في قبورهم وما سيلاقونه من شديد العقاب ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

والعذاب المترتِّب على تكذيب الرسل لا يزال متوعداً به من كذَّب وعصى، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧]. وقال عز من قائل: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وتلك سنة ماضيةٌ لا تتخلف، ووعيد حقٌّ لا يتأخَّر، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧] وقال عز من قائل: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣].

وبيَّن النبي ﷺ أن الله إذا أراد رحمة أمةٍ قبض نبيها قبلها؛ ليكون لها فرطاً وسلفاً، وإذا أراد هلاك أمةٍ عذبها ونبيُّها حيٌّ؛ لتقر عينه بهلكتها؛ فقد روى مسلم عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الله ﷻ إذا أراد رحمة أمةٍ من عباده قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها، وإذا أراد هلكة أمةٍ عذَّبها ونبيُّها حيٌّ، فأهلكها وهو ينظر، فأقرَّ عينه بهلكتها حين كذبوه، وعصوا أمره»[١].

ثانياً: ترك الصلاة:

شرع الله الصلاة صِلَةً بين العباد وربهم، وجعل مثوبتها الفلاحَ في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]. يناجي فيها العبد ربَّه؛ ففي الحديث القدسيِّ يقول الرب ﷻ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. قال الله تعالى: أثنى علي عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. قال: مجدني عبدي ـ وقال مرة: «فوض إلي عبدي» ـ. فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[٢].

وجعلها طهارةً لأبدانهم وأدرانهم من الذنوب والآثام، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] وفي الصحيحين عن أبي

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٧٩١.
(٢) صحيح مسلم، ح٣٩٥، ١/ ٢٩٧.

هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أنَّ نهراً بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمساً، ما تقول ذلك يُبقي من درنه؟ قالوا: لا يبقي من درنه شيئاً. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا»[1].

والصلاة كما تُنقِّي العبد من الذنوب وآثارها، فهي تنهى المسلم عن مقارفة الفواحش والآثام، قال جل ثناؤه: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فمن تهاون بها وضيعها، فهو متوعد، بأشد أنواع العذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]. والصلاة من أعظم الذكر.

وأخبر النبي ﷺ أمته بالعذاب الذي يلقاه في قبره المتهاون بالصلاة، ففي الصحيح عن سمرة بن جندب ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ ـ يعني ممَّا يُكثِرُ أن يقول لأصحابه ـ: «هل رأى أحد منكم من رؤيا؟» قال: فيقصُّ عليه من شاء الله أن يقُصَّ. وإنه قال ذات غداة: «إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق. وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثْلَغُ رأسه فيتدَهْدَهُ الحجر ها هنا، فيتبع الحجر فيأخذه، فلا يرجعُ إليه حتى يصحَّ رأسه كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى، قال: قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. . .

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، ح٥٠٥، ١/ ١٩٧؛ وصحيح مسلم، ح٦٦٧، ١/ ٤٦٢.

إلى أن قال: أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يُثْلَغُ رأسُه بالحجر؛ فإنه الرجلُ يأخذ القرآن فيرفضُه، وينام عن الصلاة المكتوبة»)[١].

هذا عذابه في قبره، أما يوم القيامة فقد ذكر الله تعالى شيئاً من عذاب تاركي الصلاة، فقال عز من قائل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]. وقال جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

ثالثاً: منع الزكاة:

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي قرينة الصلاة، جمع الله بينها وبين الصلاة في آياتٍ كثيرةٍ تزيد على عشرين موضعاً في كتابه الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وجعل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة علامةً على إسلام العبد لله؛ فقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١]، وقاتل الصديق رضي الله عنه من فرّق بين الصلاة والزكاة، وأقرّه على ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، وما ذاك إلا لعظيم مكانتها في هذا الدين.

فإذا كانت الزكاة بهذه المكانة، فلا غَرْو أن رتب الشارعُ العقوبات العظيمة على من منعها. ومن تأمل العذاب المترتِّب على منع الزكاة أدرك تمام الحكمة الإلهية في المناسبة بين الذنب وبين العقوبة، فإذا كان من معاني الزكاة البركة والنماء، فإن من عقوبة منعها منع المطر الذي تنمو به الخيرات، وتُخرِجُ الأرض بركتَها، ومن عقوبتها

---

(١) صحيح البخاري، ح٦٦٤٠، ٦/٢٥٨٣ ـ ٢٥٨٥.

ـ أيضاً ـ أن يبتلى الناس بالسنين، وهي الجدب والقحط. فلما منعوا فضول أموالهم، شدّد الله عليهم في أرزاقهم، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وتأمل حكمة الله في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين؛ كيف جُوزُوا على منع ما للمساكين قِبَلَهم من القوت بمنع الله مادة القُوت والرزق وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتمُ الحقَّ، فمُنِعْتُمُ الغيثَ، فهلا استنزلتموه ببذل ما لله قِبَلكم)[1].

يدل لذلك ما رواه الحاكم في «مستدركه» عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقض قوم العهد قط إلا كان القتل بينهم، ولا ظهرت الفاحشة في قوم قط إلا سلّط الله عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر». وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[2].

وورد عند الطبراني بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «ما منع قومٌ الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين»[3]. وأخرجه المنذري في الترغيب والترهيب، وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورواته ثقات والحاكم والبيهقي في حديث، إلا أنهما قالا: «ولا منع قومٌ الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر». وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ورواه ابن ماجه والبزار والبيهقي من حديث ابن عمر[4].

وعن عبد الله بن عمر أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أيُّ المؤمنين

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٣١٥. وفي هذه الصفحة وما بعدها أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقفات جميلة في بيان التناسب بين الذنوب والعقوبات الإلهية.
(٢) المستدرك على الصحيحين ٢/ ١٣٦؛ وشعب الإيمان للبيهقي ٣/ ١٩٦.
(٣) المعجم الأوسط ٧/ ٤٠.
(٤) الترغيب والترهيب ١/ ٣٠٩.

أفضل؟ قال: «أحسنُهم خُلُقاً». قال: فأي المؤمنين أكْيَسُ؟ قال: «أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم له استعداداً؛ أولئك الأكياس»، ثم قال النبي ﷺ: «خمس خصال يا معشر المهاجرين! أن تنزل بكم، أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن فشت في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسِّنين وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم، وما منعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعُوا المطر، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدوهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخذوا فيما أنزل الله، إلا جعل بأسهم بينهم»(١).

فهذه الأحاديث دالةٌ على أن الأمة إذا منعت الزكاة منعت القطر، وإذا منعت حق الضعيف، منعها الله سبب الخير والنماء.

رابعاً: ترك الجهاد:

شرع الله الجهاد لإعلاء كلمته، والدفاع عن دينه، فقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]، وجعله ذروة سنام الإسلام؛ فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال لي: «إن شئت أنبأتك برأس الأمر، وعموده، وذِرْوةِ سنامه». قال: قلت: أجل يا رسول الله! قال: «أما رأس الأمر فالإسلام، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد». قال

---

(١) شعب الإيمان ٧/ ٣٥١؛ والمستدرك ٤/ ٥٨٣، وسنن ابن ماجه ٢/ ١٣٣٢؛ والاستذكار ٥/ ٩٤؛ ومسند الشاميين ٢/ ٣٩١؛ كما أورده الهيثمي في مجمع الزوائد عن عطاء عن ابن عمر ٥/ ٣١٧، وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[١].

وبيّن النبي ﷺ مكانة الجهاد في هذا الدين، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل: أيُّ العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حجٌّ مبرور»[٢].

وكما بيّن الرسول ﷺ مكانته، وأنه ذروة سنام هذا الأمر؛ فقد بيّن العاقبة المترتبة على تركه، وأنها على سبيل المقابلة، فلما كان الجهاد سبيل العز والسؤدد؛ كان تركه سبيل الذلة والمسكنة؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلّط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[٣].

وأخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق نَجْدَةَ بنِ نُفَيْع، قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩] قال: (استنفرَ رسول الله ﷺ حياً من أحياء العرب فتثاقلوا؛ فأمسك عنهم المطَرُ، وكان عذابَهم). قال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[٤].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٨٦؛ والإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٣١؛ ورواه الترمذي في سننه ٥/ ١١؛ وابن ماجه في سننه ٢/ ٣١٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، ح٢٦، ١/ ١٨.

(٣) سنن أبي داود، واللفظ له ٣/ ٢٧٤؛ والسنن الكبرى ٥/ ٣١٦؛ والمعجم الكبير ١٢/ ٤٣٢؛ وقال الألباني رحمه الله: وهو حديث صحيح لمجموع طرقه، سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١٦.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٢/ ١١٤.

خامساً: ظهور الفاحشة:

خلق الله خلقه لعبادته، وحرّم عليهم معصيته، فقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]. ونهاهم عن المعاصي والآثام ما ظهر منها وما بطن، فقال جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وقال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وحذر نبينا ﷺ أمته من مغبة مقارفة الفواحش، وبيّن أنها سبيل هلكةٍ، وأن الأمة متى ما استعلنوا بها أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده، كما أخبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين! خمسٌ إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ: لم تظهر الفاحشة في قومٍ قط حتى يعلنوا بها؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا...»[1] إلى آخر الحديث.

وعن بُرَيْدَةَ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقض قومٌ العهد إلا كان القتل بينهم. ولا ظهرت فاحشة في قوم إلا سلّط الله عليهم الموت. ولا منع قوم قط الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر»[2].

وعن ميمونة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال أمتي بخيرٍ متماسكٌ أمرُها، ما لم يظهر فيهم ولد الزنى، فإذا ظهروا، خشيت أن يعمهم الله بعقاب»[3].

وروى هذا الحديث الإمام أحمد في مسنده عن ميمونة زوج

---

(١) سبق تخريجه ص٦١.

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، غير رجاء بن محمد، وهو ثقة ٧/٢٦٩؛ سنن اللبيهقي ٣/٣٤٦، ٩٢٣١.

(٣) المعجم الكبير ٢٤/٢٣.

النبي ﷺ بلفظ: «لا تزال أمتي بخير ما لم يَفْشُ فيهم ولد الزنى، فإذا فشا فيهم ولد الزنى؛ فيوشك أن يعمَّهُمُ الله ﷻ بعقابٍ»[١].

وبعد أن أورد ابن حجر هذا الحديث وعزاه إلى المسند من طريق عائشة، قال: (سنده حسن). ثم قال: (ففي هذه الأحاديث أن الطاعون قد يقع عقوبةً بسبب المعصية)[٢].

فتضمَّنت هذه الأحاديث أنَّ الأمة إذا انتشرت فيها الفاحشة وأعلنت بها، فلتنتظر الطاعون والأمراض التي لم تكن معروفةً في أسلافهم، كما جاء ذلك في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفي حديث بريدة، ورد الوعيد الشديد بأن يسلِّط عليهم الموت، وفي حديث ميمونة رضي الله عنها نصب النبيُّ الكريم ﷺ لأمته علامة، وهي فشوُّ ولد الزنى؛ فإذا ظهر فيهم، فقد أوشك أن يتمزَّق جمعهم، وأن يتفرَّق شملهم، وأوشك الله أن يعمَّهم بعذابٍ من عنده.

وبعد ذكر الأدلة على أن الفاحشة سببٌ للعذاب الدنيوي، يحسن بنا أن ننظر ما قاله أهل اللغة في معنى الفاحشة، فقد قال الفيروزآبادي في «قاموسه»: (الفاحشة: الزنى، وما يشتدُّ قبحه من الذنوب، وكلُّ ما نهى الله ﷻ عنه، والفحشاء: البخل في أداء الزكاة، والفاحشُ البخيل جداً، والفُحْشُ: عدوانُ الجواب، ومنه: لا تكوني فاحشةً، لعائشة رضي الله عنها)[٣].

وقال ابن منظور في «لسان العرب»: (الفاحشة: القبيح من القول والفعل، وجمعها الفواحش، وأفحش عليه في المنطق؛ أي: قال

---

(١) المسند ٦/ ٣٣٣.
(٢) فتح الباري ١٠/ ١٩٢.
(٣) القاموس المحيط، مادة «فحش» ١/ ٧٧٤.

الفُحْشَ، والفحشاء اسم الفاحشة... والفحش: الاسم، ورجلٌ فاحشٌ: ذو فحشٍ. وفي الحديث: «إن الله يُبغِضُ الفاحش المتفحِّش». فالفاحش: ذو الفحش والخنا من قولٍ وفعلٍ، والمتفحِّش: الذي يتكلف سب الناس ويتعمده، وقد تكرر ذكر الفحش والفاحشة والفاحش في الحديث: وهو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي(١).

وعرفها الجرجاني في «التعريفات» بقوله: (الفاحشة: هي التي توجب الحدَّ في الدنيا والعذاب في الآخرة)(٢).

وقد وردت لفظة الفاحشة والفحشاء في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة: ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ١٦٩] وفي قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] - يراد بها عموم المعاصي والآثام، وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥] فيراد بها الزنى، وفي قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٤، ٥٥] فالمقصود بها هنا جريمة اللِّواط.

فنستخلص من ذلك: أنه إذا ظهر الزنى أو اللواط في أمة فقد استنزلت غضب الله عليها ومقته.

سادساً: نقض العهد:

أمر الله بالوفاء بالعهد، وحرّم نقضه، وأثنى على الذين يوفون بعهدهم، فقال تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]،

---

(١) لسان العرب، مادة «فحش» ٦/ ٣٢٥.

(٢) التعريفات ١/ ٢١١.

وقال جل ثناؤه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وذمّ ﷻ الذين ينقضون العهد والميثاق؛ فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]، وبيّن ﷻ أنه أحلّ عقوبته بأهل الكتاب لما نقضوا عهدهم، فقال عز من قائل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾... إلى قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٥٥ ـ ١٦٠] وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾ [المائدة: ١٣].

وبيّن النبي ﷺ أن هذه الأمة متوعَّدة بالعذاب إذا نقضت عهدها، وحريٌّ أن ينزل بها النَّكالُ كما نزل بالأمم السابقة التي هدَّدها ربُّها بالعذاب إذا نقضت عهدها؛ فأذاقها العذاب جزاء نقضها؛ فعن عبد الله بن عمر قال: (أقبل علينا رسولُ الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين! خمس إذا ابتُليتم بهن، وأعوذُ بالله أن تدركوهُنَّ» وذكر منها: «ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم»)[1].

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقض قوم العهد قط إلا كان القتل بينهم»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس بخمس»،

(١) سبق تخريجه ص٦١.

(٢) سنن البيهقي ٣/٣٤٦؛ المستدرك ٢/١٣٦.

قالوا: يا رسول الله! وما خمسٌ بخمسٍ؟ قال: «ما نقض قومٌ العهد إلا سلّط عليهم عدوَّهم. وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر. ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت. ولا طفَّفُوا المكيال إلا مُنِعوا النبات، وأُخِذُوا بالسنين. ولا منعوا الزكاة إلا حُبس عنهمُ القطر»[1].

ففي هذه الأحاديث رتّب الشارع أنواعاً من العذاب على نقض العهد؛ ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما ورد الوعيد بتسليط العدو على الأمة إذا نقضت العهد، ولم يرد ما نوع هذا التسلّط، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما جاء التهديد بأن يسلط العدو على الأمة، فيأخذ بعض ما في أيديها، وفي حديث بريدة ورد التخويف بانتشار القتل فيما بينهم.

فقد يقول قائل: فما المراد بالعهد الذي ورد بشأنه ما ورد من الثناء لمن وفّى به، والنكال لمن نقضه؟

وقبل الحديث عن نقض العهد، يناسب أن نتعرَّف إلى معنى العهد لغة واصطلاحاً.

فأما معناه لغة، فقد عرّفه الرازي في «مختار الصحاح» بقوله: (العهد: الأمان، واليمين، والموثِق، والذِّمَّة، والحِفَاظُ، والوصيةُ، وعهد إليه - من باب فهم -؛ أي: أوصاه، ومنه اشتُقَّ العهدُ الذي يُكتَبُ للولاة)[2].

ومعناه اصطلاحاً: (العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال. هذا أصله، ثم استُعمِلَ في الموْثِق الذي تلزم مراعاته)[3].

---

(١) المعجم الكبير ١١/ ٤٥.

(٢) مختار الصحاح، مادة «عهد».

(٣) التعريفات ١/ ٢٠٤.

وقال ابن منظور: (العهد: كلُّ ما عُوهِدَ الله عليه، وكلُّ ما بين العباد من المواثيق فهو عهد، وأمرُ اليتيم مِنَ العهد، وكذلك كل ما أمر الله به في هذه الآيات، ونهى عنه)[١].

وأورد الراغب الأصفهاني في «مفرداته» معنى العهد، ثم بيّن معاني العهد في القرآن الكريم فقال: (العهد: حِفْظُ الشيء ومراعاتُه حالاً بعد حال، وسُمي المَوثِق الذي يلزم مراعاته عهداً... وعهد الله تارةً يكون بما ركزه في عقولنا، وتارةً يكون بما أمرنا به في الكتاب وبألسنة رسله، وتارةً بما نلتزمه وليس بلازمٍ في أصل الشرع؛ كالنذور)[٢].

وبعد هذا البيان لمعناه اللغوي والاصطلاحي، يحسن بنا أن نتعرف إلى ما قاله المفسرون في معنى العهد في القرآن الكريم، وما المراد به؟.

اختلف المفسرون في معنى العهد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧] كما أنهم ـ أيضاً ـ لم يتفقوا على معنى العهد في الآيات الأخرى؛ فمنهم من قال: إن معنى العهد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ هو وصيةُ الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسوله ﷺ، ونقضهم ذلك تركهم العمل به.

ومنهم من قال: هو ما أخذه الله عليهم في التوراة، من العمل

(١) لسان العرب ٣/ ٣١١.
(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة «عهد» ص٣٥٠.

بما فيها، واتباع محمد ﷺ إذا بعث، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودُهم به بعد معرفتهم بحقيقته، وإنكارُهم ذلك، وكتمانهم عِلْم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

ومنهم من قال: عهده إلى جميع خلقه في توحيده ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها، الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضُهم ذلك تركهُم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبُهم الرسلَ والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق.

ومنم من قال: هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صُلب آدم، الذي وصفه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ونقضُهم ذلك: تركُهم الوفاء به(١).

وقال ابن كثير: (قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ قال: هي ستُّ خصالٍ من المنافقين إذا كانت فيهم الظُّهرَة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من

(١) انظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن ١/ ١٨٢ ـ ١٨٤؛ الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٤٦؛ تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٦؛ فتح القدير ١/ ١١٧؛ التحرير والتنوير ١/ ٣٧٠.

بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض. وإذا كانت الظُّهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا)[1].

سابعاً: الربا:

حرم الله الربا على هذه الأمة، كما حرّمه على من سبق، فقال جل ثناؤه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]، وقال ﷻ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وحذَّر أَكَلَةَ الربا من عقوباتٍ متنوعةٍ في الدار الدنيا، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة.

فأما عقوبة الدنيا، فهي محق البركة، ولزوم الفقر، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: (ما استحلَّ قومٌ الربا إلا ضربهم الله بالفقر والحاجة)[2].

وأما عقوبةُ البرزخ، فحسْبُ المرابي تلك الصورةُ البشعة التي أخبر النبي ﷺ أنه رأى المرابي يتقلب فيها، وهي فيما أخرجه البخاري رحمه الله عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «رأيت الليلة رجلين أتياني، فأخرجاني إلى أرضٍ مقدّسةٍ، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد الرجل أن يخرج؛

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٧.
(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٥٩.

رمى الرجل بحجر في فيه، فردّه حيث كان، فجعل كلّما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر، فيرجع كما كان، فقلت ما هذا؟... فقال: الذي رأيته في النهر آكلُ الربا!»(١).

وأما عقوبةُ الدار الآخرة، فقد تضمنها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] قال ابن عباس ﵄: (يُبعثُ آكل الربا يوم القيامة مجنوناً يُخنق)(٢)، وقال قتادة في تفسير هذه الآية: (وتلك علامة أهل الربا يوم القيامة، بُعثوا وبهم خبل من الشيطان)(٣). وقال ابن كثير ﵀: (أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له؛ وذلك أنه يقوم قياماً منكراً)(٤).

وهناك عقوبتان مشترَكتان بين الدنيا والآخرة:

أمَّا العقوبة الأولى؛ ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]. فهذا وعيدٌ شديدٌ وتهديدٌ أكيدٌ لأكلةِ الربا في الدنيا والآخرة، ويقال للمرابي يوم القيامة: خذ سلاحك للحرب. كما روي ذلك عن ابن عباس ﵄(٥).

أما العقوبة الثانية؛ فهي الطردُ والإبعادُ عن رحمة الله كما صحَّ الخبرُ بذلك عن سيد البشر ﷺ أنه لعن آكل الربا؛ فقد أخرج البخاري ﵀ عن عون بن أبي جُحَيفة عن أبيه أنه اشترى غلاماً حجاماً،

---

(١) صحيح البخاري، ح١٩٧٩، ٢/ ٧٣٤.
(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٥٦٢، وابن جرير في تفسيره ٥/ ٤٠.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٤٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٢٦.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢/ ٥٥٠؛ والطبري في تفسيره ٥/ ٣٩.

فقال: (إن النبي ﷺ نهى عن ثمن الدم، وثمن الكلب، وكسب البغيِّ، ولعن آكل الربا وموكله، والواشمة والمستوشمة، والمصوِّر)[1].

ولما طلب المرابي زيادة المال بغير حقٍّ، عاقبه الله بمحق بركة ماله، وكذا لما طلب الفقير سدّ خلته بطريق حرام ضربه الله بالفقر، وكذا لما كان المرابي يتخبط ذاتَ اليمينِ وذات الشمال. وهو نهِمٌ لا يشبع؛ عوقب يوم القيامة بأن يقوم من قبره يتخبط كالمصروع، وحيث كان يهيم في أودية الدنيا بحثاً عن المال المحرم، تقلب في نهر من الدم في حياته البرزخية. ومع هذه العقوبات التي توعَّده الله بها، فهو متمادٍ في جشعه، مغرق في طمعه؛ لعنه الله، وآذنه بحربه.

ثامناً: عدم التنزه من البول:

أمر الله عباده بكل ما فيه طهارة أبدانهم، وزكاة أرواحهم؛ إتماماً للنعمة، ودفعاً للنقمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ ...﴾ إلى قوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وجعل ذلك مغفرة لخطاياهم، وكفارة لسيئاتهم؛ فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء؛ فإذا غسل يديه، خرج من يديه

---

(١) صحيح البخاري، ح٥٦١٧، ٥/٢٢٢٣ واللفظ له؛ وصحيح مسلم ٣/١٢١٨، ١٥٩٧.

كل خطيئةٍ كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه، خرجت كل خطيئةٍ مشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء؛ حتى يخرُج نقياً من الذنوب»[١].

ولما كانت الطهارةُ بهذه المثابة كان التفريط فيها، وعدم التنزُّه من ضدِّها يُحِلُّ بصاحبه العقوبة الأخروية التي وردت بها الأحاديث الصحيحة؛ فعن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر، فكان يمشي بالنميمة. ثم أخذ جريدة رطبة فشقَّها نصفين، فغرز في كل قبرٍ واحدةً. قالوا: يا رسول الله! لم فعلت هذا؟. قال: لعله يخفف عنهما، ما لم ييبسا»[٢].

وعن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه إلى النبي ﷺ قال: «عامة عذاب القبر من البول»[٣].

وعن أنس بن مالك، قال: مرَّ رسول الله ﷺ بقبر؛ فنفرت بغلته الشهباء، فأخذ القوم، فقال: «خلوا عنها؛ فإن صاحب القبر يعذب؛ فإنه لا يستنزه من البول»[٤].

تاسعاً: الإحداث في الدين:

أتم الله الدين، وأكمل النعمة، وختم الرسالات بمحمد ﷺ؛ فكلُّ

---

(١) صحيح مسلم، ح٢٤٤، ١/ ٢١٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، ح٢١٥، ١/ ٤٦٤ واللفظ له؛ ومسلم في صحيحه، ح٢٩٢، ١/ ٢٤٠.

(٣) المستدرك ١/ ٢٩٣؛ وسنن الدارقطني ١/ ١٢٧.

(٤) الأحاديث المختارة ٦/ ٢٠٢.

ابتداعٍ في الدين، واستدراكٍ على الشرع؛ فهو افتراءٌ على الله؛ وما ذاك إلا لأن المبتدع والمحدث يزعُم بلسان حاله أو مقاله أن في الشرع نقصاً يستدعي الإكمال، أو أن فيه خللاً يستوجب الاستدراك.

والمراد بالمحدثات: ما أُحْدِث، وليس له أصلٌ في الشرع. ويسمى في عرف الشرع بدعةً. وما كان له أصلٌ يدلُّ عليه الشرع فليس ببدعة، فالبدعة في عرف الشرع مذمومةٌ[(١)].

ولذا كان أئمة السنة متوافرين على إقامة السنة ورفع شعارها، وعلى ذمِّ البِدَعِ وإنكارها؛ أخذاً من توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وقال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكان أئمة السنة والجماعة كلما ابتدع في الدين بدعة أنكروها ولم يقروها؛ ولهذا حفظ الله دين الإسلام، فلا يزال في أمة محمد طائفةٌ هاديةٌ مهديةٌ ظاهرةٌ منصورةٌ، بخلاف أهل الكتاب؛ فإن النصارى ابتدعوا بدعاً خالفوا بها المسيح، وقهروا من خالفهم ممن كان متمسكاً بشرع المسيح، حتى لم يبق حين بعث الله محمداً من هو متمسك بدين المسيح إلا بقايا من أهل الكتاب)[(٣)].

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٢٥٣.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة: صحيح البخاري، ح٢٥٥٠، ٢/ ٩٥٩؛ وصحيح مسلم، ح١٧١٨، ٣/ ١٣٤٣.

(٣) الجواب الصحيح ٤/ ٣٤٢.

وقال الشاطبي في «الاعتصام» محذراً من البدع والمحدثات، ومبيناً عظيم مغبتها: (فليتق امرؤ ربه، ولينظر قبل الإحداث في أي مزلةٍ يضع قدمه في مصون أمره، يثق بعقله في التشريع، ويتَّهِمُ ربَّه فيما شرع، ولا يدري المسكين ما الذي يوضع له في ميزان سيئاته، مما ليس في حسابه، ولا شعر أنه من عمله، فما من بدعةٍ يبتدِعُها أحدٌ فيُعمل بها من بعده إلا كتب عليه إثم ذلك العامل زيادة إلى إثم ابتداعه أولاً، ثم عمله ثانياً. وإذا ثبت أن كل بدعةٍ تبتدع، فلا تزداد على طول الزمان إلا مضياً حسبما تقدم، واشتهاراً وانتشاراً؛ فعلى وزان ذلك يكون إثم المبتدع لها، كما أن من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة - وأيضاً - فإذا كانت كل بدعة يلزمها إماتة سنة تقابلها، كان على المبتدع إثم ذلك أيضاً، فهو إثم زائد على إثم الابتداع؛ وذلك الإثم يتضاعف تضاعف إثم البدعة بالعمل بها؛ لأنها كلما تجددت في قول أو عملٍ، تجددت إماتة السنة كذلك)[1].

والقرآن الكريم يدل على أن على مبتدعها إثم من عمل بها إلى يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، فهم يحملون وزر الضلال والإضلال، ويدلُّ لذلك - أيضاً - قوله عليه الصلاة والسلام: «ومن سن في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ»[2].

ولما كان الإحداث في الدين والابتداع بهذه الهُوَّةِ السحيقة من الضلال والهلاك، فقد حذر منه الشارع أيما تحذيرٍ، وتوعَّد عليه بالعقوبات العاجلة والآجلة. ومن هذه العقوبات ما يلي:

---

(١) الاعتصام ١/ ١٢٢.

(٢) صحيح مسلم، ح١٠١٧، ٢/ ٧٠٥.

١ ـ أن يسلط الأشرار على الأخيار، فيسومونهم سوء العذاب، كما روى أبو مسعود الأنصاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال هذا الأمرُ فيكم وأنتم وُلاتُه ما لم تُحدِثُوا أعمالاً تنزِعُه منكم، فإذا فعلتم ذلك؛ سلّط الله عليكم شِرارَ خَلقِه، فالتحَوْكم كما يُلتَحَى القضيبُ». قال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[(١)].

وقال ابن منظور: (هو من لحوت الشجرة إذا أخذت لحاءها، وهو قشرها... واللحاء ما على العصا من قشرها، ولحاء كل شجرة قشرها، واللحاء: قشر كل شيء، ولحوت العود ألحوه، وألحاه: إذا قشرته، والتحيت العصا، ولحيتها التحاء ولحياً: إذا قشرتها)[(٢)].

٢ ـ اللعن، وألا يقبل منه صرف ولا عدل، فقد أخرج البخاري ومسلم عن علي ﷺ قال: (ما عندنا شيء إلا كتاب الله وهذه الصحيفة عن النبي ﷺ: المدينة حرم ما بين عائرٍ إلى كذا، من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل)[(٣)].

واللعن في اللغة: هو الإبعاد والطرد.

وفي الشرع: الإبعاد من رحمة الله تعالى[(٤)]. والمراد بلعنة

---

(١) المستدرك ٤/٥٤٨؛ والمسند ١/٤٥٨، ٥/٢٤٧؛ ومصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٥٢٦؛ والمعجم الأوسط ٨/٢٣٩؛ والمعجم الكبير ١٧/٢٦٢؛ ومسند الطيالسي ١/٨٦؛ ومسند أبي يعلى ٨/٤٣٨؛ وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح ٥/١٩٣.

(٢) لسان العرب، مادة «لحا» ١٥/٢٤١، ٢٤٢.

(٣) صحيح البخاري، ح١٧٧١، ٢/٦٦١ واللفظ له؛ وصحيح مسلم، ح١٣٦٦، ٢/٩٩٤.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ٢/٦٧.

الملائكة والناس: أي تلعنهم، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء، فكذلك العُصاةُ تلعنهم كلُّ دابةٍ على وجه الأرض، وقيل: المراد به: المبالغةُ في الإبعاد عن رحمة الله. والمراد باللعن هنا: العذاب الذي يستحقه على ذنبه في أول الأمر، وليس هو كلعن الكافر(١)

٣ ـ الذِّلةُ في الدنيا، والعذابُ في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]. قال الشاطبي رحمه الله معلِّقاً على هذه الآية: (فهو عمومٌ فيهم، وفيمن أشبَهَهُم من حيثُ كانت البِدَعُ كلُّها افتراءً على الله حسبما أخبر في كتابه في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٤٠]. فإذاً كل من ابتدع في دين الله، فهو ذليلٌ حقيرٌ بسبب بدعته، وإن ظهر لبادي الرأي في عزه وجبريته، فهم في أنفسهم أذلاء)(٢).

٤ ـ أن المبتدع يحمل وِزْرَه ووِزْرَ من تبعَه يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [النحل: ٢٥].

عاشراً: عدم الحكم بما أنزل الله:

أنزل الله الشرع المحكم؛ ليتحاكم الناسُ إليه كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وبيّن سبحانه أنه يحكم ولا معقب لحكمه، فقال جل شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ

---

(١) فتح الباري ٤/ ٨٤؛ وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٢٠٠.
(٢) الاعتصام ١/ ١٢٦.

﴿لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١]، وأرشد عباده إلى أن أمره يدلهم إلى خير طريق وأقوم سبيل، فقال جل ثناؤه ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وأمرنا أن نرجع إليه عند التنازع فقال ﷻ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، وجعل التحاكم إلى شرعه علامة على الإيمان، فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، ونبّه المؤمنين إلى أنه لا يسوغ لهم أن ينتقوا من شرع ربهم ما يوافق أهواءهم، ويتخلوا عما فيه عَنَتُهم ومشقتُهم، ومخالفةُ أهوائهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وأمر نبيه بالتحاكم إلى شرعه، فقال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

فإذا شرع الحكيم لعباده حكماً، وتنكبوا عن صراطه، وخالفوا أمره، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ فحينئذ يتعرضون لعذاب الله، وينزلون بأنفسهم مقت الله وغضبه، كما أخبر الصادق المصدوق حينما أنذر أمته مغبة المخالفة، فقال: «وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»[1]. فلما تركوا ما جعله الله سبيلاً لائتلاف قلوبهم، وصلاح شأنهم؛ عاقبهم الله بضد ذلك، وهو أن يجعل بأسهم بينهم، فنعوذ بالله من الخذلان.

وبيّن ﷺ أن الأمة إذا ردت بعض الكتاب وآمنت ببعض،

---

(١) المستدرك ٤/٥٨٣؛ وسنن ابن ماجه ٢/١٣٣٢؛ والسنن الكبرى ٢/٣٤٦.

وحكّمت الإسلام في بعض شأنها، واحتكمت إلى غيره في بقية شؤونها، فهي متوعدة بعذاب الخزي في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال أحمد شاكر معلقاً على هذه الآية: (ومما يملأ النفس ألماً وحزناً: أن صار أكثر الأمم التي تنتسب للإسلام إلى هذا الوصف المكروه، ووقعوا في مثل هذا الذي ذم الله به اليهود من أجله، وجعل جزاء من يفعله خزياً في الحياة الدنيا ورداً في الأخرى إلى أشد العذاب، فترى أكثر الأمم المنتسبة للإسلام يعتقدون صحة القرآن، ويشهدون بذلك، ويعرفونه، ويزعمون القيام بأمره، ثم يخالفونه في التشريع في شؤونهم المالية والجنائية والخُلقية، ولا يستحُون أن يعلنوا أن تشريعه وتشريع الرسول ﷺ في سنته لا يوافق العصر! ويجعلون من حقهم أن يشرعوا ما شاؤوا؛ وافق الكتابَ والسنةَ أم خالفه! ويصطنعون قوانين أوروبة الوثنية الملحدة، ويشربونها في قلوبهم، ويزعمون أنها أهدى وأنفع للناس مما أنزل إليهم من ربهم، ولا يتعظون بما أنذرهم به ربهم من المُثُل بالأمم قبلهم)[١].

حادي عشر: النميمة:

شرع الله لعباده كل ما فيه صلاحُ دينهم ودنياهم، وحرم عليهم كل ما فيه فسادُ أُولاهم وأُخراهم؛ ليعيش المسلم مع إخوانه في سلام ووئامٍ، وجعل من الكبائر المحرمة والجرائم المعجلة العقوبة، كل ما

---

(١) عمدة التفسير، أحمد شاكر ١/ ١٣٢، ١٣٣.

يتناقض مع هذه الغاية النبيلة، ومن هذه الجرائم: النميمة، وهي ـ كما قال الغزالي ـ: (النميمة في الأصل: نقلُ القول إلى المَقُولِ فيه). وقال ابن حجر في الفتح: (ولا اختصاصَ لها بذلك بل ضابطها: كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو غيرهما، وسواء كان المنقول قولاً أم فعلاً، وسواء كان عيباً أم لا)[1].

وقد وردت نصوص من القرآن والسنة تحرم هذه الفِعْلَةَ، وتبين عاقبتَها؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ١ ـ ٤]. وقال جل ثناؤه وتقدَّست أسماؤه: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

وصح عن النبي ﷺ من حديث حذيفة رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يدخُلُ الجنةَ قتَّات»[2].

وفي حديث ابن عباس السابق: «وأما الآخَرُ، فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدةً رطبةً فشقها نصفين، فغرز في كل قبرٍ واحدةً. قالوا: يا رسول الله! لم فعلت هذا؟. قال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»[3].

فتضمنت هذه النصوص العذاب المترتب على هذا العمل، إذ دلَّت الآيات وحديث حذيفة على أن النمام لا يدخل الجنة، وأنه متوعدٌ

(١) فتح الباري ١٠/ ٤٧٣.
(٢) متفق عليه من حديث حذيفة: صحيح البخاري، ح٥٧٠٩، ٥/ ٢٢٥٠؛ وصحيح مسلم، ح١٠٥، ١/ ١٠١.
(٣) سبق تخريجه ص٧٣.

بالنار ما لم يتُب، كما تضمن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه متوعَّدٌ بعذاب القبر، ما لم يتُب أيضاً.

ثاني عشر: كثرة الخبث:

أمر الله عباده المؤمنين بعمل الصالحات، ووعدهم على ذلك الأمن في الدنيا، والفوز في الأخرى، وحذرهم من مخالفة أمره والوقوع في نهيه ومعصيته، وكما رتب على الطاعة الأجر في الدنيا والآخرة؛ فقد رتب على المعصية العذاب في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، وقال جل ثناؤه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

فإذا عمّ الذنب عمّ العذابُ؛ فقد أخرج البخاري ومسلم عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحشٍ رضي الله عنهن أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: «لا إله إلا الله! ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها. قالت زينب بنت جحشٍ: فقلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟. قال: نعم إذا كثُر الخَبَثُ!!»[1] وقد سئل ابن وهبٍ عن قوله في هذا الحديث: إذا كثر الخبث. فقال: أولاد الزنى[2].

وأخرج ابن عبد البر في «الاستذكار» من طريق منذر الثوري عن

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، واللفظ له، ح٣١٦٨، ٣/ ١٢٢١؛ ومسلم، ح٢٨٨٠، ٤/ ٢٠٠٧.

(٢) الاستذكار ٨/ ٥٨٣.

الحسن بن محمد، قال: حدَّثتني امرأةٌ من الأنصار، قالت: دخلت على أمِّ سلمة زوج النبي ﷺ فبينا أنا عندها، إذ دخل رسول الله ﷺ فتكلم بكلام لم أفهمه، فسألت أم سلمة بعد خروجه، فقالت: (إن الفساد إذا فشا في الأرض ولم يتناه عنه، أرسل الله بأسه على أهل الأرض. قالت: قلت يا رسول الله! وفيهم الصالحون؟ قال: نعم، وفيهم الصالحون، يصيبُهم ما أصابَهم، ويقبِضُهم اللهُ إلى رحمته ورضوانه ومغفرته)[1].

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: (كان يقال: إن الله تبارك وتعالى لا يعذِّبُ العامة بذنب الخاصَّة، ولكن إذا عمل المنكر جهاراً استحقوا العقوبة كلُّهم)[2].

فلمَّا شاع فيهم الذنب ولم يُنكروه، ولم تتمعر وجوههم من رؤيتهم له؛ عمهم العذاب، واستحقوا مقت الله وعذابه.

ثالث عشر: الكذب:

الكذب خَلَّةٌ ذميمةٌ، لا يلجأ إليه ويتحرَّاه إلا من ضعُفَ دينُه، وقلّ عقله، وما ذاك إلا لأن الكاذب لا يكذب إلا لينال من خلاله مطمعاً، أو ليدفع عنه مُزعِجاً، أو ليستر به نقصاً، ويواري به ضعفاً، ولو كمل إيمانه، وتم له عقله؛ لأيقن أن الله قد كتب كل شيء وقدره، فلن يستجلب العبد بالكذب ما لم يُقدَّر له، ولن يدفع عن نفسه بالكذب ما قُدِّر عليه، ولن ينال به حمداً، ولن يدفع به ذماً؛ بل هو طريقٌ يستجلب به العبد سخط الله ومقته عليه.

وكلما كان الكذب أعظم أثراً، كانت عقوبتُه أكبرَ وأعظمَ، فأعظم

---

(١) الاستذكار ٨/ ٥٨٣.

(٢) الموطأ ٢/ ٩٩١.

الكذب الكذب على الله، حيث جعله الله أعظم من الشرك، فقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وكتب الله جلّ في علاه على المفترين عليه الخسارةَ في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩]. وتوعَّد النبي ﷺ من كذب عليه متعمداً أن يتبوأ مقعده من النار، فقال ﷺ: «من تعمد علي كذباً فليتبوأ مقعده من النار»[1]. كما بيّن النبي ﷺ أن من امتهن الكذب وتحراه، فإنه يختم له بخاتمة السوء، فقال النبي ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدُق حتى يكون صدّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذِبُ حتى يكتب عند الله كذاباً»[2].

كما أخبر النبي ﷺ عن عقوبة الكذب الواسع الانتشار، فقال ﷺ في ذلك الخبر الطويل العظيم: «فانطلقنا، فأتينا على رجلٍ مستلقٍ لقفاه، وإذا آخر قائمٌ عليه بكلوبٍ من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه، فيُشَرشِرُ شِدْقَه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، قال: وربما قال أبو رجاء فيشق، قال: ثم يتحول إلى الجانب الآخر، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل مثل ما فعل المرة

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، ح١٠٨، ١/ ٥٢؛ وصحيح مسلم، ح١، ٢/ ١٠.
(٢) صحيح البخاري واللفظ له، ح٥، ٥٧٤٣/ ٢٢٦١؛ وصحيح مسلم، ح٤، ٢٦٠٧/ ٢٠١٢.

الأولى. قال قلت: سبحان الله! ما هذان؟. إلى أن قال: وأما الرجل الذي أتيت عليه يُشَرْشِرُ شِدْقَه إلى قفاه، ومِنْخَرَه إلى قفاه، وعينه إلى قفاه؛ فإنه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق»[١]. فهذا من علامات نبوته ﷺ حيث أخبر عن هذا النوع من الكذب الذي يعظم أثره، ويبلغ الآفاق، ولعل أوضح وسيلة لهذا الكذب الواسع، الكذب في وسائل الإعلام ومواقع الشبكة المعلوماتية (الإنترنت).

ففضحت هذه النصوص الكذّاب، وبيَّنت سوء عاقبته في الدنيا والآخرة، وأن الكذب منه ما هو أعظم من الشرك، ومنه ما يُورِدُ صاحبه النار، ويختم لملازمه بخاتمة السوء، ومنه ما يلقى صاحبه هذا العذاب البَشِعَ في قبره حيث يشرشر شدقه وفمه ومنخراه بكلوبٍ من حديد.

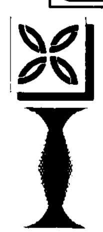
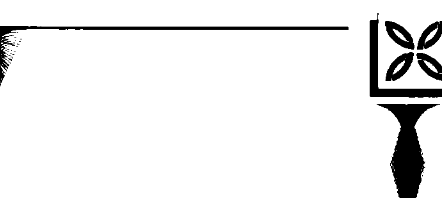
وبعد هذا الذكر الموجز لأسباب العذاب الدنيوي، وما قد يترتب عليه من العذاب الأخروي، يحسن بنا أن نقف على أنواع العذاب الذي توعد الله به من خالف أمره، وتنكَّب عن صراطه المستقيم.

---

(١) سبق تخريجه ص٥٩.

المبحث الرابع

أصناف العذاب

أصناف العذاب

استعرضنا طرفاً من أسباب العذاب في المبحث السابق، وهذا أوانُ الحديث عن العذاب المترتب على هذه الذنوب والمعاصي التي هي أسبابٌ لهذا النَّكال، بل هي الجالبةُ والموجبة له.

وكما تنوعت الجرائر بسبب تنوع دواعيها في النفس البشرية؛ إذ جميعها يرجع إلى أصلين: ترك مأمور، وفعل محظور، وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه أبوي الجن والإنس بهما، وكلاهما ينقسم باعتبار محله على ظاهر على الجوارح، وباطن في القلوب، وباعتبار متعلقه إلى حقِّ الله وحقِّ خلقه[1].

وقد تفاوتت درجات الذنوب بسبب اختلاف مفاسدها وما ينتج عنها؛ ولذا تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة، ولله الحكمة البالغة؛ فقد يعم بالعذاب، وقد يؤجله، وقد يصبُّه على صاحبه، وهو لا يشعر، ويظن أنه منعّم، وهو مستدرج، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَا

(١) الجواب الكافي ص٨٦.

يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦ ـ ١٧٨].

وقال ﷻ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فنخلص من هذا إلى أنَّ العذاب متنوعٌ متفاوتٌ، ومعجلٌ ومؤجلٌ، وخاصٌ وعامٌ، قد يعمُّ العذابُ كالزلزلة، وقد يخص كعذاب القبر والحمى والأمراض. وفيما يلي بيان لبعض أنواعه التي وردت في القرآن والسنة.

الأول: الهلاك العام:

وقبل الحديث عن الهلاك العام، يحسن الإشارة إلى ما سبق التنبيه عليه من أن هذا العذاب ـ أي الهلاك العام ـ لا يكون في هذه الأمة عامّاً مستأصلاً لها كلّها، كما كان في بعض الأمم السابقة؛ لكن قد يهلك قوم أو بلد، وهذا لا يكون إلا إذا فشا الذنب؛ فحينئذ تعم العقوبة، ويهلك المذنبون، ويشمل العذاب العامة والخاصة، وما ذاك إلا لأن المذنب انتهك محارم الله، وجاهر بمعصيته بين ظهراني قومه، وهم قادرون على الإنكار، فلم يأخذوا على يديه؛ فيحلوا عليهم عقوبة الله ومقته، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥ ـ ٤٧]. وروى البخاري ومسلم عن زينب بنت جحش ﵂ أن النبي ﷺ استيقظ من نومه وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ـ وعقد

سفيان بيده عشرة ـ قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثُرَ الخبث»[١].

وروى الإمام أحمد والطبراني في المعجم عن العِرْسِ بن عَميرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى تعمل الخاصة بعمل تقدِرُ العامة أن تغيره ولا تغيره، فذاك حين يأذن الله في هلاك العامة والخاصة»[٢].

وإذا نزل العذاب فلا ينجو منه إلا المصلحون؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]. أما من اقتصر نفعهم على أنفسهم، ولم يغاروا على حرمات الله، ويغضبوا لغضبه؛ فيشملهم العذاب، ثم يبعثهم الله على ما ماتوا عليه، فقد روى الطبراني في المعجم الأوسط عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها. قال: إن فيها عبدك فلاناً لم يعصك طرفة عين. قال: اقلبها عليه وعليهم؛ فإن وجهه لم يتمعَّر لي ساعةً قط»[٣].

وهذا العذاب العام ورد ذكره في القرآن كثيراً، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] وقال جل ثناؤه موضحاً عاقبتهم بعد نجاة نوح ومن معه: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٦] وقال ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ

---

(١) صحيح البخاري، ح٦٦٥٠، ٦/٢٥٨٩؛ وصحيح مسلم، ح٢٨٨٠، ج٧ ٤٢٢٠ واللفظ له.
(٢) المعجم الكبير ١٧/١٣٨؛ والمسند ٤/١٩٢؛ والآحاد والمثاني ٤/٣٨٧.
(٣) المعجم الأوسط، ح٧٦٦١، ٧/٣٣٦.

مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٧] وقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

وهذا العذاب أصناف كثيرة متعددة، سيأتي تفصيلها فيما يلي، إن شاء الله.

الثاني: الغرق:

وأول أمةٍ عاقبها الله بالغرق أمة نوح، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٦]، فجاءها الماء من فوقها ومن تحتها؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠]، كما أهلك الله به فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ [طه: ٧٨]، ولما أعرضت سبأ أرسل الله عليهم المطر المدمر؛ قال تعالى: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٦] ولا يزال هذا العذاب يتكرر في كل عصر: فتارة أمواجٌ عاتيةٌ، وتارة فيضاناتٌ عارمةٌ، وثالثةٌ سيولٌ وأمطارٌ غزيرةٌ.

الثالث: الريح:

أهلك الله بها قوم عاد، قال جل ثناؤه: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، ونصر بها رسوله محمداً ﷺ يوم الأحزاب، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، وتوعد بها المخالفين، الذين إذا أحاطت بهم الشدائد دعوا الله مخلصين له الدين، فإذا ذهب الخوف وحل الأمن؛ كفروا بربهم، قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٩]. وعن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: (ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لَهَواتِه، إنما كان يتبسَّم، قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، فقالت: يا رسول الله! أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا؛ رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية. قالت: فقال: يا عائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾)[١].

الرابع: الزلازل:

جاءت الأحاديث النبوية مصرِّحةً بأن الزلازل تقع في هذه الأمة عقوبة لها على بعدها عن ربها، وتنكُّبها عن صراطه المستقيم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يُقبض العلمُ، وتكثُر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْجُ ـ وهو القتل، القتل ـ حتى يكثر فيكم المال، فيفيض»[٢]. وبيّن النبي ﷺ أن من رحمة الله بهذه الأمة أنه إذا أراد أن يعاقبها على ذنوبها عجل لها العقوبة، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمتي هذه أمةٌ مرحومةٌ، ليس عليها عذاب في الآخرة، عذابها في الدنيا الفتن

---

(١) صحيح البخاري، ح٩٧٨، ١/ ٣٥٠؛ وصحيح مسلم، ح٨٩٩، ٢/ ٦١٦.
(٢) صحيح البخاري، ح٩٨٩، ١/ ٣٥٠.

والزلازل والقتل»[١].

وقد كانت أول ما كانت في الإسلام على عهد عمر ﷺ فأنكرها، وقال: (أحدثتم! والله لئن عادت لأخرُجَنَّ من بين أظهركم). رواه ابن عيينة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن صفية، قالت: زُلزلت المدينة على عهد عمر، حتى اصطكَّت السُّرُرُ، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (ما أسرع ما أحدثتم، والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم)[٢]. فانظر إلى عظيم فقه هذا الخليفة الراشد ﷺ. فلما رأى أنه حدث في الكون حدث لم يعهده، علم أن الأمة أحدثت حدثاً استوجبت أن يغير الله عليها. وقال الإمام ابن القيم رحمه الله موضحاً الحكمة من ذلك: (فتحدث فيها ـ أي الأرض ـ الزلازل العظام، فيحدث من ذلك لعباده: الخوف، والخشية، والإنابة، والإقلاع عن معاصيه، والتضرع إليه، والندم، كما قال بعض السلف ـ وقد زلزلت الأرض ـ: إن ربكم يستعتبكم)[٣]. وقال كعب: (إنما زُلزلت الأرضُ إذا عُمِلَ فيها بالمعاصي؛ فترعُد فَرَقاً من الرب ﷻ أن يطلع عليها. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار: أما بعد، فإن هذا الرجف شيء يعاتب اللهُ ﷻ به العبادَ)[٤].

الخامس: الصيحة:

ومن الأقوام الذين عذبوا بالصيحة قوم صالح، وذلك بسبب كفرهم وعتوهم، وعقْرهم الناقة، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ

(١) المسند ٤/ ٤١٠، ٤١٨؛ وسنن أبي داود ٤/ ١٠٥؛ والمستدرك ٤/ ٤٩١؛ ومسند أبي يعلى ١٣/ ٢٦١.

(٢) سنن البيهقي ٣/ ٣٤٢.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٢١.

(٤) الجواب الكافي ١/ ٣٠.

أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨]، وجاء في السنة ما يوضح ذلك؛ فعن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لما مرَّ النبيُّ ﷺ بالحجر، قال: «لا تسألوا الآيات؛ فقد سألها قوم صالح، فكانت ـ يعني الناقة ـ تَرِدُ من هذا الفَجِّ وتصدر من هذا الفَجِّ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فأخذتهم الصيحة فأهمد الله من تحت السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله، قيل: من هو؟ قال: أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه». قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[١] وقال ابن كثير: (وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم)[٢].

وذكر ابن كثير رحمه الله كيف حلّ بقوم ثمود العذاب، فقال: (وأصبح ثمود يوم الخميس ـ وهو اليوم الأول من أيام النظرة ـ ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني ـ من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ـ ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث ـ من أيام المتاع وهو يوم السبت ـ ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد، وقد تحنطوا، وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه ـ عياذاً بالله من ذلك ـ لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب؟ وأشرقت الشمس؛ جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواحُ، وزهقت النفوسُ في ساعة واحدةٍ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾. أي صرعى لا أرواح فيهم، ولم

(١) المستدرك ٢/ ٣٥١، ٣٧١؛ وصحيح ابن حبان ١٤/ ٧٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٢٨.

يفلت منهم أحدٌ لا صغيرٌ ولا كبيرٌ، لا ذكرٌ ولا أنثى، قالوا: إلا جاريةً كانت مقعدةً، واسمها كلبة ابنة السلق ـ ويقال لها الذريعة، وكانت كافرةً شديدة العداوة لصالحٍ عليه السلام ـ فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حيّاً من الأحياء، فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت ماتت)[1].

ومن القرى التي أُخِذَ أهلها بالصيحة القرية الوارد ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٨، ٢٩]، قال المفسرون: (بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام، فأخذ بعَضَادَتَيْ باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحةً واحدةً؛ فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم تبق بهم روح تتردد في جسد)[2].

السادس: وقوع البأس فيما بينهم:

بيّن تعالى أن مما توعد به عباده أن يسلط بعضهم على بعض، وأن يُلْبِسَهم شيعاً يقتل بعضهم بعضاً، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وأخبر تعالى أنه جعل بأس اليهود فيما بينهم، فقال عز من قائلٍ: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

ومن رحمة الرسول ﷺ بأمته أن سأل ربه أن لا يجعل بأس أمته فيما بينها؛ فمُنِعَ إياها لحكمةٍ عظيمةٍ لا نعلمها، فالحمد لله على قضائه

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٣٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٧٠.

وأمره، فقد روى الإمام مسلم عن عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مرّ بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلاً، ثم انصرف إلينا، فقال ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدةً: سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»[1].

وأخرج ابن جرير رحمه الله عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ الآية. قال: (فهنَّ أربعٌ، وكلهن عذابٌ، فجاء منهن اثنتان بعد وفاة رسول الله بخمس وعشرين سنة، فأُلْبِسوا شيعاً، وأذيق بعضهم بأس بعض، وبقيت اثنتان، فهما لا بد واقعتان؛ يعني: الخسف، والمسخ). ونقل مثل ذلك عن أُبي بن كعب رضي الله عنه[2].

ولما وقف عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنهم على ما غنمه المسلمون من الفُرْس، فلما رأوه كشطوا الأنطاع عن الأموال، فرأى عمر رضي الله عنه منظراً لم ير مثله، رأى الذهب فيه والياقوت والزبرجد واللؤلؤ يتلألأ، فبكى عمر بن الخطاب، فقال له أحدهما: والله ما هو بيوم بكاء، ولكنه يوم شكرٍ وسرور. فقال: إني والله ما ذهبتُ حيثُ ذهبتَ، ولكنه والله ما كثر هذا في قومٍ قط إلا وقع بأسهم بينهم. ثم أقبل على القبلة، ورفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً، فإني أسمعك تقول:

---

(١) صحيح مسلم، ح٤، ٢٨٩٠/٢٢١٦.

(٢) تفسير الطبري ٧/٢٢٦؛ وانظر: الدر المنثور ٣/٢٨٣؛ والمسند ٥/١٣٤.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] [الأعراف: ١٨٢].

ويقول الشيخ محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن الله لم يجعل عقوبة الأمة على معاصيها وذنوبها كعقوبة الأمم السابقة، لم يجعلها بالهلاك العام المدمر للأمة كما حصل لعادٍ حين أهلكوا بالريح العاتية، سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً، فترى القوم فيها صرعى، كأنهم أعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقيه. لم يجعلها كعقوبة ثمود، الذين أخذتهم الصيحة والرجفة؛ فأصبحوا في ديارهم جاثمين. ولم تكن كعقوبة قوم لوطٍ، الذين أرسل الله عليهم حاصباً من السماء؛ فجعل الله ديارهم عاليها سافلها. إن الله بحكمته ورحمته لهذه الأمة جعل عقوبتهم على ذنوبهم ومعاصيهم أن يسلط بعضهم على بعض؛ فيهلك بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً)[٢].

السابع: الطاعون:

ذكر النبي ﷺ أن الطاعون من العقوبات التي أرسلها الله على بعض الأمم السابقة عقوبة لها على تمرُّدها وعصيانها؛ ففي الحديث الصحيح عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجسٌ أُرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض، وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه»[٣].

---

(١) الأم ٤/١٥٧.

(٢) أثر المعاصي على الفرد والمجتمع ص١١.

(٣) صحيح البخاري، ح٣٢٨٦، ٣/١٢٨١ واللفظ له؛ وصحيح مسلم، ح٢٢١٨، ٤/١٧٣٨.

ونقل عبد الرزاق عن قتادة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ قال: فرُّوا من الطاعون، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ليكملوا بقية أيامهم[١].

وذكر ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩] أن المراد بالرجز الطاعون، وعزز قوله بما روي عن النبي ﷺ في الطاعون أنه قال: «إنه رجز عذب به بعض الأمم الذين قبلكم»[٢].

وقال أيضاً عند تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]: (اختلف أهل التأويل في ذلك الرجز الذي أخبر الله أنه وقع على هؤلاء القوم، فقال بعضهم: كان ذلك طاعوناً. وممن قال بذلك: ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير رحمه الله[٣].

وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: الرجز: العذاب، وبعد أن استعرض ابن جرير هذه الأقوال قال: (وأولى القولين بالصواب في هذا الموضع: أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن فرعون وقومه أنهم لما وقع عليهم الرجز ـ وهو العذاب والسخط من الله عليهم ـ فزعوا إلى موسى بمسألته ربه كشف ذلك عنهم، وجائز أن يكون ذلك الرجز كان الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم؛ لأن كل ذلك كان عذاباً عليهم، وجائز أن يكون ذلك الرجز كان طاعوناً، ولم يخبرنا الله أي ذلك كان، ولا صح عن رسول الله ﷺ بأي ذلك كان

(١) تفسير الصنعاني ١/ ٩٧.
(٢) تفسير الطبري ١/ ٣٠٥.
(٣) المصدر السابق ٩/ ٤٠، ٤١.

خبر، فنسلم له)[١].

ولئن كان هذا المرض عذاباً على من كان قبلنا؛ فهو رحمةٌ لمن أُصيب به من هذه الأمة، فمن مات فيه فهو شهيد؛ فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تعدون الشهيد فيكم؟ قالوا: يا رسول الله! من قتل في سبيل الله فهو شهيد. قال: إن شهداء أمتي إذاً لقليل. قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد»[٢].

وقد عصم الله منه مدينة رسوله ﷺ فلا يدخُلُها؛ فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال»[٣].

الثامن: المسخ:

من أصناف العذاب الأدنى: المسخ، وهو: تحويل صورةٍ إلى ما هو أقبح منها[٤]. أو هو ـ كما قال الراغب الأصفهاني في «مفرداته» ـ: (تشويه الخَلْقِ والخُلُقِ، وتحويلهما من صورة إلى صورة. قال بعض الحكماء: المسخ ضربان: مسخٌ خاص يحصل في العينة، وهو مسخ

---

(١) المصدر السابق ٩/ ٤١.

(٢) صحيح البخاري، ح٥٤٠٠، ٥/ ٢١٦٥؛ وصحيح مسلم، ح١٩١٥، ٣/ ١٥٢١ واللفظ له.

(٣) صحيح البخاري، ح٥٣٩٩، ٥/ ٢١٦٥؛ صحيح مسلم، ح١٣٧٩، ٢/ ١٠٠٥ واللفظ له.

(٤) التعريفات للجرجاني، ص٢٢٥.

الخَلْق، ومسخ قد يحصل في كل زمان ومكان، وهو مسخ الخُلُق؛ وذلك بأن يصير الإنسان متخلقاً بخُلقٍ ذميم من أخلاق بعض الحيوانات، نحو أن يصير في شدة الحرص كالكلب، وفي الشَّره كالخنزير)[١].

ولقد عذب الله به بعض الأمم السابقة، فمسخ بعضهم قردةً وخنازير؛ بسبب مخالفة الأمر والاحتيال عليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٦].

ذكر ابن جرير، وابن كثير، وغيرهما ـ عند تفسير هذه الآية ـ أنهم لما لم ينتهوا عن فعلهم قال الناهون لهم: (يا أعداء الله! والله لا نُبايتكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبّحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب، ونادوا فلم يجابوا، فوضعوا سُلَّماً، وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم، فقال: أي عباد الله! قردة ـ والله ـ تعادى، تعاوى، لها أذناب، قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القرود يأتيها

(١) المفردات، مادة «مسخ» ص٤٦٨.

نسيبها من الإنس، فتشم ثيابه وتبكي، فيقول: ألم ننهَكم عن كذا؟ فتقول برأسها: أي نعم!)(١)

فالآية مصرِّحَةٌ بأن الله عاقب هذه الأمة بالمسخ جزاءً لها على عُتُوِّها وتمرُّدها، وهو مسخ حقيقي حوّل الله صورهم من الصورة الآدمية إلى الصورة الحيوانية. وكلام المفسرين على هذه الآية شاهد على هذا.

وأمر الله نبيه ﷺ أن يحذّر أهل الكتاب ـ إذا كذبوه وخالفوا أمره ـ أن يحل بهم ما حل بأسلافهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وهذا العذاب البئيس الذي أحلّه الله بالسابقين؛ توعد الله به اللاحقين المخالفين من هذه الأمة؛ فقد أخرج البخاري رحمه الله عن عبد الرحمٰن بن غنم الأشعري، قال حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري ـ والله ما كذبني ـ سمع النبي ﷺ يقول: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف، ولينزِلَنَّ أقوام إلى جنب عَلَمٍ يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم ـ يعني الفقير ـ لحاجةٍ، فيقولوا: ارجع إلينا غداً، فيبيّتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»(٢).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أما يخشى أحدكم، أو ألا يخشى أحدكم، إذا رفع رأسه قبل الإمام، أن

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٥٩؛ وانظر: جامع البيان ٦/٦٩.
(٢) صحيح البخاري، ح٥، ٥٢٦٨/٢١٢٣.

يجعل الله رأسه رأس حمار، أو يجعل الله صورته صورة حمار»[1].

ففي هذين الحديثين الوعيد الشديد بالمسخ والتحويل إلى هذه الصورة البَشِعة؛ ففي الحديث الأول: الوعيد على مقارفة المعصية واستحلالها، وفي الثاني: الوعيد على المخالفة للأمر الشرعي والتقصير في أداء العبادة على الوجه المشروع.

وقد يتساءل متسائل: هل المسخ المذكور يراد به المسخ المعنوي أو الحسي؟.

فأقول: أورد ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ أقوال العلماء في ذلك، ورجح حمل الحديث على ظاهره، وقال: (قال ابن بزيزة: يحتمل أن يراد بالتحويل المسخ، أو تحويل الهيئة الحسية أو المعنوية، أو هما معاً، وحمله آخرون على ظاهره؛ إذ لا مانع من جواز وقوع ذلك، وسيأتي في كتاب الأشربة الدليل على جواز وقوع المسخ في هذه الأمة، وهو حديث أبي مالك الأشعري في المغازي؛ فإن فيه ذِكْر الخسف، وفي آخره: «ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»، ويقوي حمله على ظاهره أن في رواية ابن حبان من وجه آخر عن محمد بن زياد: «أن يحول الله رأسه رأس كلب»؛ فهذا يُبْعِدُ المجاز؛ لانتفاء المناسبة التي ذكروها من بلادة الحمار، ومما يُبْعِدُه أيضاً: إيراد الوعيد بالأمر المستقبل، وباللفظ الدال على تغيير الهيئة الحاصلة، ولو أريد تشبيهه بالحمار لأجل البلادة لقال مثلا: فرأسه رأس حمار، وإنما قلت ذلك؛ لأن الصفة المذكورة ـ وهي البلادة ـ حاصلة في فاعل ذلك عند فعله المذكور، فلا يحسن أن يقال له: يخشى إذا فعلت ذلك أن تصير بليداً، مع أن فِعْلَه المذكور إنما نشأ عن البلادة)[2].

---

(١) صحيح البخاري ح٦٥٩، ١/ ٢٤٥ واللفظ له؛ وصحيح مسلم، ح١، ٤٢٧/ ٢٣٠.
(٢) فتح الباري ٢/ ١٨٤.

وورد عن النبي ﷺ حديث يحدِّدُ بعض الأماكن التي يكون فيها الخسف والمسخ والقذف؛ فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أنس! إن الناس يُمَصِّرُون أمصاراً، وإن مصراً منها يقال له: البصرةُ أو البُصَيْرةُ، فإن أنت مررت بها، أو دخلتها، فإياك وسباخها وكلاءها وسوقها وباب أمرائها، وعليك بضواحيها؛ فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف، وقوم يبيتون يصبحون قردة وخنازير»[١].

وجاء عن النبي ﷺ أحاديث تحدد علامة حلول المسخ، وذلك إذا فشت المعاصي والذنوب وتكاثرت، وتغيرت معايير الناس، وتبدلت أحوالهم؛ فمن ذلك: ما رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اتخذ الفيء دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً، وتعلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته، وعق أمه، وأدنى صديقه، وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأُكْرِمَ الرجل مخافة شره، وظهرت القينات والمعازف، وشربت الخمور، ولعن آخر هذه الأمة أولها؛ فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء، وزلزلة وخسفاً ومسخاً وقذفاً، وآيات تتابع كنظام بال قُطِع سِلْكُه فتتابع».

وروى أيضاً عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف». فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله! ومتى ذاك؟ قال: «إذا ظهرت القينات والمعازف، وشربت الخمور»[٢].

وروى ابن ماجه في «سننه» عن سيار، عن طارق، عن عبد الله،

---

(١) سنن أبي داود، ح٤٣٠٧، ٤/١١٣؛ ومشكاة المصابيح، ح٣، ٥٤٣٣/١٩.
(٢) سنن الترمذي، ح٢٢١١ و٢٢١٢، ٤/٤٩٥.

عن النبي ﷺ قال: «بين يدي الساعة مسخ وخسف وقذف»[١].

وروى أبو نعيم في «أخبار أصفهان» بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ليبيتن أقوام من هذه الأمة على طعام وشراب ولهو؛ فيصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فظهر بهذا أن القوم الذين يخسف بهم ويمسخون، إنما يفعل ذلك بهم من جهة التأويل الفاسد الذي استحلوا به المحارم بطريق الحيلة، فأعرضوا عن مقصود الشارع وحكمته في تحريم هذه الأشياء، ولذلك مسخوا قردة وخنازير، كما مسخ أصحاب السبت بما تأولوا من التأويل الفاسد الذي استحلوا به المحارم، وخُسِفَ ببعضهم كما خسف بقارون؛ لأن في الخمر والحرير والمعازف من الكبر والخيلاء ما في الزينة التي خرج فيها قارون على قومه، فلما مَسَخوا دين الله مسخهم الله، ولما تكبروا عن الحق أذلهم الله، وقد جاء ذكر المسخ والخسف عند هذه الأمور في عدة أحاديث)[٣].

وقال ابن القيم رحمه الله: (وتأمل حكمته تعالى في مَسْخِ من مَسَخَ من الأمم في صُور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم، فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها، اقتضت الحكمة

---

(١) سنن ابن ماجه، ح٢، ٤٠٥٩/١٣٤٩، وقال الألباني: وهذا إسناد لا بأس به في الشواهد، رجاله ثقات رجال مسلم، غير سيار هذا.. إلى أن قال: ثم إن للحديث شواهد كثيرة تشهد لصحته عن عائشة، وعمران بن حصين، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وسهل بن سعد، وجابر بن عبد الله، وأبي هريرة، وسعيد بن راشد. سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح١٧٨٧، ٤/ ٣٩٢.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح١٦٠٤، ٤/ ١٣٥.

(٣) الفتاوى الكبرى ٣/ ١٢٩، ١٣٠.

البالغة أن جُعلت صُورُهم على صورها؛ لتتم المناسبةُ، ويكمل الشبه، وهذا غاية الحكمة. إلى أن قال: وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مُسِخَ منهم عند الموت خنزيراً، فأكثرُ من أن تُذكر ها هنا، وقد أفرد لها الحافظ ابن عبد الواحد المقدسي كتاباً)[(١)].

ولأن هذا الأمر مما قد تستثقله بعض النفوس وتستبعده؛ فقد أكثرت النقول فيه؛ إقامة للحجة، وبياناً للمحجة، وقطعاً لأصل الشبهة. وما تركته من النصوص وكلام أهل العلم أكثر من ذلك، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

التاسع: الخسف:

وهو من العقوبات العظيمة الفظيعة التي عاقب الله بها بعض العباد والبلاد، فقال تعالى ذكره مخبراً عما حلّ بقارون ومن معه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

وأخبر النبي ﷺ عن ذلك الرجل الذي غره مالُه ولباسُه، فجر ثوبه كبراً وخيلاء؛ فخسف الله به الأرض؛ ففي الصحيحين عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء؛ خسف به، فهو يتجَلْجَلْ في الأرض إلى يوم القيامة»[(٢)].

وأمر الله نبيه ﷺ أن يقول للمشركين الذين يدعون مع الله آلهة

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٥٤، ٢٥٥؛ وانظر: منهاج السنة النبوية ١/ ٤٨٥. لم يذكر ابن القيم اسم الكتاب، وذكر اسمه ابن تيمية في المنهاج فقال: وسماه (النهي عن سب الأصحاب).

(٢) صحيح البخاري، ح٣، ٣٢٩٧/ ١٢٨٥؛ وصحيح مسلم، ح٢٠٨٨، ٣/ ١٦٥٣.

أخرى، فيخلصون العبادة لله في الضَّرَّاء، ويشركون معه آلهة أخرى في السَّرَّاء: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]. قال ابن زيد في قوله ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾. قال: كان ابن مسعود رضي الله عنه يصيح ـ وهو في المجلس أو على المنبر ـ ألا أيها الناس! إنه نزل بكم، إن الله يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، لو جاءكم عذاب من السماء لم يبق منكم أحداً، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لو خسف بكم الأرض أهلككم ولم يبق منكم أحداً، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ﴾، ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث[1]. وقال أبو مالك، وسعيد بن جبير، ومجاهد، رحمهم الله جميعاً: إن المراد بقوله: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أن يخسف بكم الأرض[2].

وحين أخبر النبي ﷺ قومه بقيام الساعة والبعث بعد الموت كذبوه، واستهزؤوا به، واستبعدوا ذلك، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [سبأ: ٩].

ويقول تعالى ذكره: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥

---

(١) جامع البيان ٧/ ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٢٢٠؛ وانظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٣١١.

ـ ٤٧]. قال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رَحِمَهُ اللهُ: (هذا تخويف من الله لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غِرَّةٍ، وهم لا يشعرون: إما أن يأخذهم بالعذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوُّفهم من العذاب)[١].

وهذا الوعيد الذي تهدد الله به المشركين والمخالفين، بيّن النبي ﷺ أنه سيكون في آخر هذه الأمة؛ إذا ظهرت فيهم المعاصي والآثام، ولم ينكروها، كما في حديث أبي أُمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يبيت قوم من هذه الأمة على طعام وشراب ولهو؛ فيُصبحون قد مسخوا خنازير، ولَيَخْسِفَنَّ بقبائل فيها، وفي دور فيها، حتى يصبحوا فيقولوا: خسف الليلة ببني فلان، خسف الليلة بدار بني فلان، وأرسلت عليهم حصباء حجارة كما أرسلت على قوم لوط، وأرسلت عليهم الريح العقيم، فتنسفهم كما نسفت من كان قبلهم؛ بشربهم الخمر، وأكلهم الربا، ولبسهم الحرير، واتخاذهم القينات، وقطيعتهم الرحم، قال: وذكر خصلة أخرى، فنسيتها» قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم[٢].

وأخبر النبي ﷺ عن وقوعه وتحققه، وأقسم على ذلك. وسئل الرسول ﷺ: متى يكون ذلك؟ وهل له من علامة؟ فقال: «والذي بعثني بالحق، لا تنقضي هذه الدنيا حتى يقع بهم الخسف والمسخ والقذف. قالوا: ومتى ذلك يا نبي الله! بأبي أنت وأمي؟ قال: إذا رأيت النساء قد ركبن السُّروج، وكثُرت القيناتُ، وشهد شهادات الزور، وشرب

(١) تفسير السعدي ص٤٤١.
(٢) المستدرك على الصحيحين، ح٨٥٧٢، ٤/ ٥٦٠.

المسلمون في آنية أهل الشرك الذهب والفضة، واستغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء»[١].

وأخبر النبي ﷺ - أيضاً - عن جيش يغزو الكعبة، فيخسف الله بهم الأرض؛ ففي صحيح ابن حبان عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغزو جيش الكعبة، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض؛ خسف بأولهم وآخرهم. قالت عائشة: يا رسول الله! وفيهم سواهم، ومن ليس منهم؟!. قال: يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم»[٢].

ولذا كان النبي ﷺ يستعيذ بالله منه؛ عبودية لله، وإرشاداً لأمته ﷺ كما نقل ذلك ابن عمر رضي الله عنهما حيث يقول: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الكلمات حين يُصبحُ وحين يُمسي: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، ومن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي». يعني الخسف. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٣].

وهذه الخسوف التي أخبر عنها النبي ﷺ ليست هي الخسوف العظمى التي تكون بين يدي الساعة، بل هي من العلامات العشر

---

(١) المستدرك على الصحيحين، ح٨٣٤٩، ٤/ ٤٨٣.

(٢) صحيح ابن حبان، ح٦٧٥٥، ١٥/ ١٥٥؛ وانظر: صحيح مسلم، ح٢٨٨٤، ٤/ ٢٢١٠.

(٣) المصدر السابق، ح١٩٠٢، ١/ ٦٩٨؛ وأحمد في المسند ٢/ ٢٥؛ ورواه ابن حبان في صحيحه، ح٩٦١، ٣/ ٢٤١؛ وابن أبي شيبة في المصنف، ح٢٩٢٧٨، ٦/ ٣٥.

الكبرى التي تسبق قيام الساعة، كما في خبر حذيفة بن أسيد الغفاري، قال: اطلع النبي ﷺ علينا، ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكر الساعة. قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: فذكر الدُّخانَ، والدَّجال، والدَّابَّة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[1].

وهذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مخبرةٌ عما سلف، وكان من الخسوف التي أهلكت من حلّت بدارهم، ومؤذنة بخسوف مقبلة تباغت أهل اللهو والمجون، فتأخذهم على حين غرة، فينادون ولات حين مناص، ومنبئة عن خسوف عظيمة هي إحدى العلامات العشر الكبرى التي تكون إرهاصاً لقيام الساعة... وهذه الآيات العظيمة - أعني الخسوف - لا تنكرها العقول، ولا تستعظمها النفوس، وهي أحداث جسام تهتز لها الأرض، وتضطرب من هولها، وتلتهم ما فوقها. ولعمر الحق، إن ذلك لأمر عظيم جلل، وإن مسخ الإنسان وتحويل صورته إلى صورة أخرى، أهون من الخسف بالبقاع والبلاد، والكل هَيِّنٌ على الله، كما قال تعالى في شأن إعادة الخلق يوم القيامة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ومع ذلك تجد من يستعظم المسخ، ويحاول أن يؤوله، ويزعم أنه مسخ معنوي يمسخ فيه الخُلق ولا تتغير الصورة الخلْقية، والكل هين على الله، والكل جاء فيه الخبر عن الله وعن رسوله ﷺ، والكل حادث وواقع فيما مضى، ومتوعد به فيما بقي، فنسأل الله أن يجنبنا أليم سخطه، وعظيم عقابه.

---

(١) صحيح مسلم، ح٢٩١٠، ٤/٢٢٢٥.

العاشر: عذاب القبر[(١)]:

ومن أصناف العذاب الأدنى عذاب القبر، وعذاب القبر قد يَعُمُّ الأمة كلها، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

وقد يتناول أصنافاً من الناس وقعوا في معصية واحدة، فتماثلت عقوبتهم في حياتهم البرزخية؛ فمن ذلك: ما رواه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ ـ يعني مما يكثر أن يقول لأصحابه ـ: «هل رأى أحد منكم من رؤيا؟ قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وإنه قال ذات غداة: إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه، فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى، قال: قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق»[(٢)]. . . إلى آخر الحديث، وذكر فيه الرسول ﷺ أنواعاً من المعاصي وعقوباتها في الحياة البرزخية؛ فمن ذلك: الذي يأخذ القرآن ويرفضه، وترك الصلاة، وأكل الربا، والكذب الذي يبلغ الآفاق، والزنى.

وجاء في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن من الذنوب التي يعذب أصحابها في قبورهم: النميمة، وعدم التنزه من البول، إلى آخر

---

(١) وحيث ذكره المفسرون ضمن العذاب الأدنى فقد أوردته هنا، وحقه أن يفرد ببحث مستقل.

(٢) صحيح البخاري ح٦٦٤٠، ٦/ ٢٥٨٥.

ما جاء في الأحاديث التي تَذكرُ عذاب القبر، وقد ذكرت فيما مضى شيئاً من أنواع المعاصي، فلا موجب للتكرار.

وسئل شيخ الإسلام ابن القيم رَحِمَهُ الله عن أسباب عذاب القبر فقال: (المسألة التاسعة: وهي قول السائل: ما الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور؟ جوابها من وجهين: مجمل، ومفصل. أما المجمل، فإنهم يعذبون على جهلهم بالله، وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم لمعاصيه، فلا يعذب الله روحاً عرفته وأحبته وامتثلت أمره، واجتنبت نهيه، ولا بَدَناً كانت فيه أبداً؛ فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار، ثم لم يتب، ومات على ذلك؛ كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقل ومستكثر، ومصدق ومكذب. ثم ذكر الجواب المفصل، وفصل فيه أنواع الذنوب، ثم قال: فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها، وصغيرها وكبيرها، ولما كان أكثر الناس كذلك، كان أكثر أصحاب القبور معذبين، والفائز منهم قليل، فظواهر القبور تراب، وبواطنها حسرات وعذاب، ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبنيات، وفي باطنها الدواهي والبليات، تغلي بالحسرات كما تغلي القدور)[1].

وهذا العذاب مما دلّ عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة، ولكن قد يعرض للقارئ قول بعض منكري عذاب القبر: إما من الزنادقة أو من أهل الأهواء. لذا سأذكر بعض الأدلة عليه من القرآن ومن السنة ومن الدلائل العقلية.

---

(١) الروح لابن القيم ١/ ٧٧ ـ ٧٩.

أما دلالة القرآن، فأوضح آية تدل عليه هي قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] ونقل ابن جرير رحمه الله قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن المراد بالمعيشة الضنك: عذاب القبر(١).

أما دلالة السنة، فقد مرّ معنا في هذا البحث من الأحاديث ما يدل دلالة جلية عليه مما يغني عن إعادته هنا.

أما دلالة العقل، فقد قال الشيخ محمد العثيمين رحمه الله: (وأما العقل: فإن النائم في منامه يرى الرؤيا الحق المطابقة للمواقع، وربما رأى النبي ﷺ على صفته، ومن رآه على صفته، فقد رآه حقاً ومع ذلك فالنائم في حجرته على فراشه بعيداً عما رأى، فإن كان هذا ممكناً في أحوال الدنيا، أفلا يكون ممكناً في أحوال الآخرة؟!

وأما اعتمادهم فيما زعموه على أنه لو كشف عن الميت في قبره، لوجد كما كان عليه، والقبر لم يتغير بسعة ولا ضيق. فجوابه من وجوه؛ منها:

الأول: أنه لا تجوز معارضةُ ما جاء به الشرع بمثل هذه الشبهات الداحضة التي لو تأمل المعارض بها ما جاء به الشرع حق التأمل، لعلم بطلان هذه الشبهات. وقد قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفَهْم السَّقِيمِ

الثاني: أن أحوال البرزخ من أمور الغيب التي لا يدركها الحس،

(١) تفسير الطبري ١٦/١١٧.

ولو كانت تُدركُ بالحس، لفاتت فائدة الإيمان بالغيب، ولتساوى المؤمنون بالغيب، والجاحدون في التصديق بها.

الثالث: أن العذاب والنعيم وسعة القبر وضيقه إنما يدركها الميت دون غيره، وهذا كما يرى النائم في منامه أنه في مكان ضيق موحش، أو في مكان واسع بهيج، وهو بالنسبة لغيره لم يتغير منامه هو في حجرته وبين فراشه وغطائه، ولقد كان النبي ﷺ يوحى إليه وهو بين أصحابه، فيسمع الوحي، ولا يسمعه الصحابة، وربما يتمثل له الملك رجلاً، فيكلمه والصحابة لا يرون الملك، ولا يسمعونه.

الرابع: أن إدراك الخلق محدود بما مكَّنهم الله تعالى من إدراكه، ولا يمكن أن يدركوا كل موجود، فالسمٰوات السبع والأرض ومن فيهن، وكل شيء يسبح بحمد الله تسبيحاً حقيقياً يسمعه الله تعالى من شاء من خلقه أحياناً. ومع ذلك هو محجوب عنا، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهكذا الشياطين، والجن، يسعون في الأرض ذهاباً وإياباً، وقد حضرت الجن إلى رسول الله ﷺ واستمعوا لقراءته وأنصتوا وولوا إلى قومهم منذرين. ومع هذا، فهم محجوبون عنا. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]. وإذا كان الخلق لا يدركون كل موجود، فإنه لا يجوز أن ينكروا ما ثبت من أمور الغيب، ولم يدركوه.

ثم قال: وأما دلالة الحس عليه: فإن النائم يرى في منامه أنه كان في مكان فسيح بهيج يتنعم فيه، أو أنه كان في مكان ضيق موحش

يتألم منه، وربما يستيقظ أحياناً مما رأى، ومع ذلك فهو على فراشه في حُجرته على ما هو عليه، والنوم أخو الموت. ولهذا سمّاه الله تعالى «وفاة»؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢][١].

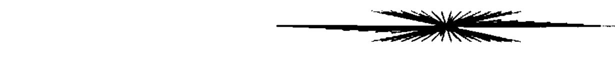
وقال الأستاذ محمد عبد الله دراز رحمه الله بعد أن تحدث عن أن الاكتشافات العلمية تجعلُ العلم يعترف بعجزه عن الإحاطة بكل شيء، وأن في الوجود قوى لا يستطيع العلم نفيها، ولا يتمكن من إخضاعها لما عهده من أدلة حسية، فقال: (أجل! لقد أصبح العلم يؤمن اليوم بأن في الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد، ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر، المزود بأقوى المقاييس والموازين. وبالجملة، أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هي المعيار الوحيد للوجود، وهكذا وضع بيده اللبنة الأولى في القاعدة التي تقوم عليها الأديان)[٢].

---

(١) شرح الأصول الثلاثة، ص١٠٨ ـ ١١٠.

(٢) الدين ص٩٠، ولو قال: يقوم عليها الدين الصحيح؛ لكان أسلم.

الخاتمة



الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبمنه وكرمه تتوالى المكرمات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحد لا شريك له، شهادة عبد يطلب مغفرة ذنبه، ويرجو رحمة ربه، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فقد تبيّن من خلال هذا البحث حقيقة العذاب الأدنى، وأنه واقع في الأمم السابقة، ومتوعَّدٌ به العصاةُ من هذه الأمة، وأن أنواع هذا العذاب كثيرة؛ منها ما يكون في الحياة الدنيا، ومنها ما يكون في القبر، وأن هذا النكال متنوع، فتارة يكون زلزالاً مدمراً، وتارة يأتي على هيئة ريح عاتية، وتارة ثالثة يكون مرضاً عضالاً، وتارة رابعة يكون خسفاً ومسخاً... إلى آخر صور هذا العذاب.

كما تبيّن لنا أن أسبابه متعددة، يأتي على رأسها الكفر بالله، والشرك، وترك الصلاة، ثم اللواط، والزنى، والإحداث في الدين، والنميمة... إلى آخر هذه الأسباب المذكورة في ثنايا البحث.

ومن خلال استعراض هذه الأسباب اتضح أنه كلما كان السبب خاصاً كان العذاب والنكال خاصّاً، وكلما كان السبب عامّاً كانت العقوبة عامة، وما ربك بظلام للعبيد.

وظهر لنا أن هذا العذاب المتوعد به ليس خبراً ماضياً، بل هو حق على حقيقة، وهو وعيد متحتم الوقوع، أقسم النبي ﷺ على بعض

صوره أنها ستقع قبل يوم القامة إذا توافرت أسبابها، وبيّن في صور أخرى أنها مقبلة لا محالة، فويل لمن أدركها!.

وينبغي لطلبة العلم الشرعي الإحاطة بأسباب هذا العذاب، ومعرفة أنواعه، وتحذير الأمة من الوقوع في أسبابه؛ لئلا تستجلب غضب الله ومقته، وعلى أئمة المساجد وأرباب المنابر ورجال الإعلام توعية الأمة بنحو ذلك، وإرشادهم إلى ما يحقق لهم السلامة من مغبة هذه الأهوال العظام والمخاطر الجسام، أليست إسرائيل ومن معها يبنون استراتيجياتهم العسكرية والسياسية على أوهام وخرافات تضمنها الكتاب المحرف المعتمد لديهم؟ وهو كله أوهام وأساطير، أفلا يكون أرباب الرسالة الخالدة والوحي المحفوظ أولى بالاستفادة من هذه الإرشادات النبوية والأخبار الإلهية؟!

وفي ختام هذا البحث أسأل الله أن يكون هذا البحث خالصاً لوجهه سبحانه، نافعاً لكاتبه، مفيداً لمن استرشد به، وأن يجزي خيراً كل من أعان على إظهاره بهذه الصورة التي لا تخلو مما طبع عليه البشر من النقص والضعف.

وأصلي وأسلم على إمام المتقين، وقدوة الخلق أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

ملخص البحث

هذا البحث يتناول بيان حقيقة العذاب الأدنى الوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١﴾ [السجدة: ٢١]. كما يوضح أنواعه وأسبابه.

وتضمن هذا البحث بيان هذا العذاب الأدنى، وأنه واقع في الأمم السابقة، ومتوعد به العصاة من هذه الأمة، وأن أنواع هذا العذاب كثيرة منها ما يكون في الحياة الدنيا، ومنها ما يكون في القبر، وأن هذا النكال متنوع، فتارة يكون زلزالاً مدمراً، وتارة يأتي على هيئة ريح عاتية، وتارة ثالثة يكون مرضاً عضالاً، وتارة رابعة يكون خسفاً ومسخاً... إلى آخر صور هذا العذاب.

كما تبيّن في هذا البحث أن أسبابه متعددة يأتي على رأسها الكفر بالله، والشرك، وترك الصلاة، ثم اللواط، والزنى، والإحداث في الدين، والنميمة... إلى آخر هذه الأسباب المذكورة في ثنايا البحث.

ومن خلال هذا البحث اتضح أنه كلما كان السبب خاصاً كان العذاب والنكال خاصاً، وكلما كان السبب عاماً كانت العقوبة عامة، وما ربك بظلام للعبيد.

وظهر في هذا البحث أن هذا العذاب المتوعد به ليس خبراً ماضياً، بل هو حق على حقيقة، وهو وعيد متحتم الوقوع أقسم النبي ﷺ على بعض صوره أنها ستقع قبل يوم القيامة إذا توافرت

أسبابها، وبيّن في صور أخرى أنها مقبلة لا محالة، فويل لمن أدركها!.



فهرس المصادر والمراجع



- **القرآن الكريم**.
- **الآحاد والمثاني**: أحمد بن عمرو الشيباني، تحقيق فيصل الجوابرة، ن. دار الراية الرياض، الطبعة الأولى.
- **أثر المعاصي على الفرد والمجتمع**: محمد بن صالح بن العثيمين، ن. دار الوطن الرياض، الطبعة الثالثة.
- **الأحاديث المختارة**: ضياء الدين محمد بن عبد الله بن محمد المقدسي، تحقيق عبد الملك بن دهيش، ن. مكتبة النهضة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى.
- **الاستذكار**: يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، تحقيق سالم بن محمد عطا، ومحمد علي معوض، ن. دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى.
- **التحرير والتنوير**: محمد بن الطاهر عاشور، ن. دار سحنون، تونس.
- **ترتيب القاموس المحيط**: ترتيب الطاهر أحمد الزاوي، ن. دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى.
- **الترغيب والترهيب**: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق. إبراهيم شمس الدين، ن. دار الكتب العلمية. بيروت.
- **التعريفات**: علي بن محمد الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، ن. دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى.
- **تفسير ابن أبي حاتم**: عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس الرازي، تحقيق أسعد محمد طيب، ن. المكتبة العصرية، صيدا.

- **تفسير الثوري**: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، ن. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
- **تفسير الصنعاني**: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق مصطفى مسلم، ن. مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى.
- **تفسير القرآن العظيم**: إسماعيل بن عمر بن كثير، ن. دار الفكر، وطبعة دار المعرفة.
- **التفسير الكبير**: أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، ن. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
- **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**: عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمٰن اللويحق، ن. مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى.
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: محمد بن جرير الطبري، تحقيق د. عبد الله التركي، ن. دار هجر، مصر. ومطبعة دار الفكر. بيروت.
- **الجامع لأحكام القرآن**: محمد بن أحمد القرطبي، ن. دار الكتب المصريه.
- **الجامع الصحيح (صحيح البخاري)**: محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، ن. دار ابن كثير، بيروت. الطبعة الثالثة.
- **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق حمدان الحمدان، وأخرين، ن. دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى.
- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**: محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، ن. دار الكتب العلمية. بيروت.
- **الدر المنثور**: عبد الرحمٰن بن الكمال، جلال الدين السيوطي، تحقيق د. عبد الله التركي، الطبعة الأولى. وطبعة دار الفكر.
- **الدين**: تأليف محمد بن عبد الله دراز، نشر دار القلم، ط٢، ١٣٩٠هـ.
- **الروح**: محمد بن أبي بكر الزرعي، ن. دار الكتب العلمية. بيروت.

- **سلسلة الأحاديث الصحيحة**: محمد ناصر الدين الألباني، ن. دار المعارف، الرياض.
- **سنن أبي داود**: سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ن. دار الفكر.
- **سنن ابن ماجه**: محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد بن فؤاد بن عبد الباقي، ن. دار الفكر، بيروت.
- **سنن البيهقي**: أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد عطا، ن. مكتبة الباز، مكة المكرمة.
- **سنن الترمذي**: محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، ن. دار إحياء التراث، بيروت.
- **سنن الدارقطني**: علي بن عمر الدارقطني، تحقيق عبد الله هاشم يماني، ن. دار المعرفة، بيروت.
- **السنن الكبرى**: أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق عبد الغفار البنداري، وسيد حسن، ن. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
- **شرح النووي على صحيح مسلم**: يحيى بن شرف النووي، ن. دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى.
- **شعب الإيمان**: أحمد بن الحسين البيهقي، ن. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
- **صحيح ابن حبان**: محمد بن حبان بن أحمد البستي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ن. مؤسسة الرسالة. بيروت، الطبعة الأولى.
- **صحيح مسلم**: مسلم بن الحجاج القشيري. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ن. دار إحياء التراث، بيروت.
- **الفتاوى الكبرى**: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق حسنين محمد مخلوف، ن. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى.
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب، ن. دار المعرفة.

- **فتح القدير**: محمد بن علي الشوكاني، تحقيق عبد الرحمٰن عميرة، ن. دار الوفاء، الطبعة الأولى.
- **الفردوس بمأثور الخطاب**: للديلمي، تحقيق العيد زغلول، ن. دار الكتب العلمية، بيروت.
- **لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور**: ن. دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- **مجمع الزوائد**: علي بن أبي بكر الهيثمي، ن. دار الريان، القاهرة.
- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**: جمع عبد الرحمٰن بن قاسم وابنه محمد، تصويراً عن طبعة الملك سعود.
- **مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز**: إعداد عبد الله الطيار، ن. دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى.
- **مختار الصحاح**: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق محمد خاطر، ن. مكتبة لبنان، بيروت.
- **مسند أبي يعلى**: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلي الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، ن. دار المأمون. دمشق، الطبعة الأولى.
- **المسند**: الإمام أحمد بن حنبل، ن. مؤسسة قرطبة، مصر.
- **مسند الشاميين**: سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق حمدي السلفي، ن. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى.
- **مسند الطيالسي**: سليمان بن داود الفارسي الطيالسي، ن. دار المعرفة، بيروت.
- **مصنف ابن أبي شيبة**: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق كمال الحوت، ن. مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى.
- **المعجم الأوسط**: سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله، وعبد المحسن الحسيني، ن. دار الحرمين، القاهرة.
- **المعجم الكبير**: سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق حمدي السلفي، ن. مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية.

- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**: محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **المفردات في غريب القرآن**: الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني. تحقيق محمد سيد كيلاني، ن. دار المعرفة، بيروت.
- **منهاج السنة النبوية**: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، ن. مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى.
- **الموطأ**: مالك بن أنس الأصبحي، تحقيق محمد بن فؤاد عبد الباقي، ن. دار إحياء التراث، مصر.
- **يوم أن اعترفت أمريكا بالحقيقة**: تأليف جيمس باترسون وبيتر كيم، نقله إلى العربية د. محمد البشر.



فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

* المبحث الثالث *

* المبحث الرابع *

الموضوع	الصفحة